المرأة فى شتى العصور

من لدن آدم عليه السلام حتى الآن

ما لها وما عليها

بقلم
ابن الخطيب
صاحب الفرقان . وأوضح التفاسير ، وغريب القرآن

الطبعة الأولى
سنة ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

المطبعة المصرية ومكتبتها
تأسست عام ١٩٢٤
سوق الأوقاف بأرض شريف . شارع عبد العزيز
تليفون ٩٠٠٥٣٨

المرأة في شتى العصور

من لدن آدم عليه السلام حتى الآن

مالها وما عليها

بقلم
ابن الخطيب
صاحب الفرقان . وأوضح التفاسير ، وغريب القرآن

الطبعة الأولى
سنة ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

المطبعة المصرية ومكتبتها
تأسست عام ١٩٢٤
سوق الأوقاف بأرض شريف . شارع عبد العزيز
تليفون ٩٠٠٥٣٨

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله : الحنان المنان ، الرحيم الرحمن ﴿ علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

خلق آدم على صورته ، وجعله بدءاً لخليقته ، وأسجد له ملائكته : تكريماً لنفسه ، وتعظيماً لصنعته !

وخلق زوجه حواء : من جنسه وطبيعته : ليأنس بها ، ويسكن إليها ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ .

وذلك لحكمة علمها ، وخطة رسمها : ليعمر بها الكون : الذى أعده للعمران ! وليجعله خليفة فى أرضه ، وأبناءه : خلفاء من بعده !

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . . . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض . . . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ .

تبارك من إله عظيم : وتعالى من رب رحيم !

والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين ، الذى أرسله مولاه : رحمة للعالمين !

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وعلى آله الكرام الطيبين ، وصحبه الخيار الأكرمين !

وعلى من سار على نهجهم ، وسلك طريقهم إلى يوم الدين !

أما بعد : فإن المرأة — وهي نصف المجتمع ، ونواة الأسرة ، وأساس الهناء — قد سارت من بدء الخليقة حتى الآن على وتيرة واحدة : يحكمها الرجل : سواء كان أباً ، أو أخاً ، أو زوجاً . حتى ولو كان ابناً .

مهما ارتفعت المرأة المحكومة ، ومهما تضاءل الرجل الحاكم !

وكانت للرجل حجته — القائمة فى نظره — وهى القوة ، والبطش ، والعنجهية !

وهى حجة استقاها الرجل من دوافعه النفسية : لا من الأحكام القرآنية !

فلما بزغ فجر الإسلام ، وراح ظلام الجاهلية بما فيه من آثام ، ونزل القرآن الكريم : على رسولنا الرؤوف الرحيم : إزدادت حجة الرجل وضوحاً أمام ناظريه ، وظن أن الأمر كله له لا عليه : بقول المولى سبحانه وتعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ .

وغاب عن الرجل : أن المولى الكريم : كما قال ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ فقد قال أيضاً ﴿ ولهن مثل الذى عليهن ﴾ .

وكما أعطى الرجل من حقوق : فقد أعطى المرأة حقوقاً متماثلة .

وقوله جل شأنه ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ وقد فسر الرجل هذه الدرجة ، وهذه القوامة : بتحكمه فيها : لا بحكمه عليها فحسب ، وبالاستعلاء عليها ، والحط من قدرها !

وازداد تمسكه بما هو له : ناسياً ما هو عليه : من وجوب حسن العشرة ، وترك المضارة ، والسكن ، والعطف ، والحنان ، والمودة ، والرحمة !

هذا : وقد ظلت المرأة : ساكنة لا لضعف ! مستكينة لا لقصور .

فإن المرأة : من شأنها : أن تزلزل الممالك لو أرادت ، وسعت إلى ذلك !

وما كانت استكانتها إلا بسبب تدخل الرجل فى كل شئونها ، وتحكمه فى كل أمورها ! واستقلاله برأيه : فى كل ما يأخذ أو يدع ، بل فى كل ما تأخذ المرأة أو تدع .

تاركا لها فى البيت : كسقط المتاع ، لا كإنسانة : ترغب فى الارتقاء كما يرغب ، وتركب إلى المجد كما يركب !

هذا : والمرأة – فى سائر العصور – شاهدة على العصر كله : بالتقدم أو التأخر !

وليس ما قلته : أعنى به مدح المرأة ، أو ذم الرجل : بل أعنى به التاريخ الصحيح ، الصادق : الذى نشأ فيه ! وشبا عليه .

وأن المرأة – كما للرجل – هفوات : بل سقطات !

استطاع الرجل سترها عن نفسه : لقوته ، وسطوته !

ولم تستطع المرأة سترها : لقهر الرجل لها ، وتسلطه عليها !

وهو ببطشه وجبروته : أحل لها – من الأعمال – مايتفق وميوله العدوانية البهيمية !

فأباح لها الغناء ، والرقص ، والعرى ، والفجور ! وجميع ذلك إثم على من يرتضيه : فما بالك بمن يصنعه ، ويأمر به ، ويساعد فى فشوه !

هذا : وقد ظهرت فى الآونة الأخيرة : كتب عدة لجمهرة من الكاتبين : تناولت شئون المرأة .

ومن هذه الكتب : ماتوهم أنه قد أنصف المرأة ، بل زاد عن حد الإنصاف : بما يبلغ حد الاعتساف !

ومنها : ماحاول إرضاءها على حساب الدين : بلغ حد إحلال الحرام ، وتحريم الحلال !

هذا وخير ما كتب بلا مراء : كتاب « الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة » للأستاذ العلامة البهى الخولى : الذى فجعنا بموته منذ أيام : اتى ربه طاهراً مطهراً ! رحمه الله تعالى ، وأجزل مثوبته !

وقد حاول — فى هذا الكتاب — جاهداً : ألا يخرج عن إطار الدين الحنيف : الذى يجب ألا يحيد عنه كل مسلم : استقى روح الإيمان من نبعه الصافى : وهو القرآن الكريم ، واستنار قلبه بنور الهداية : الذى بثها المولى سبحانه وتعالى فى قلوب أوليائه المتقين !

هذا : وقد رأيت أن أكتب هذا الكتاب : لأوضح فيه الحقيقة ناصعة البياض ، بغير ما تملق للمرأة ، أو نفاق للرجل ! فما هذا شأن المؤمنين .

وإنه مما لا شك فيه : أن للمرأة أخطاء : فى نظرتها للرجل . كما أن للرجل أخطاء فى نظرته للمرأة .

هذا : وإن أهم ما يكفل الحياة الراضية الهنيئة : علاقة الرجل بالأنثى ، وحسن سلوكهما معاً فى المجتمع .

وسأحاول جاهداً : استبانة هذه الأخطاء ، وإيضاحها لكلا الطرفين .

ليستبين كل منهما حقوقه قبل الآخر : فى حدود مرضات الله تعالى ، واتباع آياته البينات !

والمولى جل علاه : لا يأمر إلا بنفع وخير ! ولا ينهى إلا عن ضر وشر !

هذه هى مرضات الله تعالى : أما مرضات النفوس الخبيثة : التى لا تأمر إلا بشر ، ولا تنهى إلا عن خير : فليس بسبيلنا .

وقد بدأت هذا البحث بآدم : أبى البشر ، وزوجه حواء : حتى انتهيت إلى عصرنا الحاضر ، ليتفق اسم الكتاب مع مسماه .

وجعلت عمدتى فى ذلك : ما دونه التاريخ فى عصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . الذين لم يخل عصر من العصور : من رسالتهم وهدايتهم .

حتى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما سبقه من عصور الجاهلية .

هذا : وقد أغفلت العصور التى لم يستبن فيها شأن المرأة ، ولم يعنّ التاريخ بذكرها .

وقد أطلت فى عصرنا الحاضر : بما فيه الشفاء والكفاء !

وذلك لأن هذا العصر : هو العصر الذى عنيناه بالكتابة .

وهو أيضاً العصر الذى تميز بانحراف بعض النساء : بل أغلبهن !

وانحراف بعض الرجال : المتسببين فى انحراف النساء أصلا !

ولم أخرج فيما كتبته عن العقل ، والنقل .

هذا : وكل ما ذكرته فى شتى الأزمنة : من خير أو شر ، لم يكن فاشياً فى كل زمن ذكرناه ، بل إن الخير دائماً له رعاته وحماته : فلا ينقطع فى أى زمن ، وأى عصر : مهما فشا فيه من الشرور .

وأن الشر دائماً له من يتمسك به ، ويدعو إليه : فلا ينقطع فى أى زمن مهما فشا فيه من الخير والأخيار .

وتلك سنة الله تعالى فى مخلوقاته ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ .

والله أسأل : أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم : ابتغاء الثواب العظيم !

وأن ينفع به قارئه ، وسامعه ، وأن يغفر لى ذنوبى — وهى كثر — ويستر عيوبى — وهى كل — وأن يجعلنى كما يحب لعباده المخلصين آمين ؟

ابن الخطيب

المرأة

في عصر آدم عليه السلام

وإذا قلنا : آدم : فإنما نعنى آدم وحواء : لأنهما أصل البشرية ، وينبوع النوع الإنسانى : الذى أعده المولى سبحانه لخلافته وتعمير كونه .

وقد ذهب قوم — عفا الله عنهم — إلى أن آدم وحواء : رمزان لا حقيقة لهما . متناسين التاريخ وحقيقته ، والقرآن وقدسيته !

وإن ما قالوه ، وذهبوا إليه : كفر لمناقضته صريح القرآن الكريم .

هذا : وعصر آدم عليه السلام — باعتباره أول العصور ، ومنشأ البشرية — جدير بأن نبحث فيه شأن المرأة : حيال هذا الرجل .

لقد سكن آدم لحواء — حين رآها بجانبه — كما أوحى له مولاه ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ .

وتغشاها — بوحى من ربه وإلهامه — ﴿ فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به ﴾ سارت ، ولم تشعر بثقل الحمل ﴿ فلما أثقلت ﴾ وأحست بالجنين فى بطنها .

وأوحى إليهما : أنه سيكون إنساناً كاملا مثلهما ﴿ دعوا الله ربهما ﴾ معاً ﴿ لئن آتيتنا ﴾ نسلا ﴿ صالحاً ﴾ أى أبناء صلحاء ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ لك : حسن تفضلك بمن يؤنسنا فى وحدتنا ﴿ فلما آتاهما صالحا ﴾ من الأبناء ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ أى جعل نسلهما — وهو مكون من الرجال والنساء — لذا جاءت التثنية فى الآية الكريمة .

جعلا لله معبوداً غيره ، واستطالا على قدسيته ؛ وذلك بكفر من كفر من أبناء آدم !

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ .

هذا : والذى يبدو أن المرأة — فى عصر آدم عليه السلام — قد أخذت حقها من المساواة المنشودة : ومن التقدير المطلوب لكل إنسان : رجلا كان أو امرأة .

فكانت حواء لآدم سكنا ، وموطن مودة ورحمة !

وقد اشتركا معا فى الرغبات والمتطلبات .

حوّاء : ليست من ضلع آدم

وذهب آخرون إلى أن حواء : خلقت من ضلع الرجل « آدم » .

واستدلوا على ذلك باعوجاجها كاعوجاج الضلع ، وما هى من الضلع ، وماهى بعوجاء !

واستعانوا على قولهم هذا بأحاديث : لم تبلغ صحة المنقول ، وبيان المعقول !

وإنما حملهم على اعتقاد خلقتها من آدم : قول البارىء الحكيم ﴿ وخلق منها زوجها ﴾

وجاء فى التوراة والإنجيل — وهما مبدلان — من أن خلقتها : كانت من ضلع آدم .

وسار على ذلك جل المفسرين . إن لم يكن كلهم .

وقد تسبب من ذلك : إزدراء المرأة ، وإهمال شأنها : لأن خلقتها لم تكن ابتداء : كخلقة آدم (الرجل) .

وإذا سرنا وراء هذا الفهم الخاطىء : لكانت كل امرأة مخلوقة من زوجها . ألم يقل المولى جل وعلا ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ كما قال عن حواء ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

وإنما أراد المولى سبحانه وتعالى بقوله ﴿ منها ﴾ أى من جنسها وطبيعتها . لا أنها خلقت من جزء منه !

هذا : وكل مخلوقاته تعالى : تخلق بقول « كن » ﴿ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ .

وقد أراد الحق جل وعلا بخلقة آدم بيديه ، ومن طين : إظهاراً للإعجاز ، وأنه سيأتى على الناس زمان : تخلق فيه الأصنام من طين : بأيدى العابدين : بحيث لا تعود عليهم بالنفع ، ولا تدفع عنهم الضر ! ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون﴾ .

أما الإنسان : فقد خلقه مولاه من طين ، وبث فيه السمع والبصر : ليبين ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا ﴾ .

وجعله سبحانه وتعالى : مسئولا عما يرتكبه : بسمعه ، أو بصره ، أو قلبه ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

وسبب خلقة الإنسان من طين ، وبغير الطريق المعهود للخلقة : بقول « كن » كخلق عيسى عليه السلام ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ كان ذلك لحكمة : رؤية الملائكة لهذا الخلق ، وامتحانهم بالسجود لما هو مخلوق لله ، وبالله ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ .

خلقة عيسى عليه السلام

كما خلق عيسى عليه السلام بنفس نفخ الروح : لا بالزواج والحمل الطبيعى ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾ .

فنشأة آدم : بنفخ الروح فيه وهو جماد .

ونشأة عيسى : بنفخ الروح فى والدته : بغير مساس بشر كالمعتاد : ﴿قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ﴾ .

حواء : لم تكن السبب فى خروج آدم من الجنة

وقد زعم بعض واضعى الاناجيل ، وبعض المتلقفين لكل غريب ، الباحثين عن كل سقيم : زعموا أن حواء : هى التى أخرجت آدم من الجنة ، وأنها أرغمته على الا كل من الشجرة : التى نهاهما ربهما عن الا كل منها ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ .

فى حين أن النهى قد صدر للإثنين معاً ، والمخالفة : قد صدرت منهما معاً ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ﴾ والسوأة : كل ما يسوء الإنسان رؤية غيره له .

هذا ولم تكن حواء : هى التى أوقعت آدم فى الا كل من الشجرة المنهى عنها ، بل جاء القرآن الكريم صريحاً : فى أن الذى أوقع الإثنين معاً فى الزلة : هو الشيطان اللعين : عدو آدم وذريته إلى يوم الدين .

قال المولى سبحانه وتعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما . . . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ .

وآدم كان صاحب الأمر والنهى : شأن سائر الرجال ، ولذا اختصه الشيطان بالكلام ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ .

أبناء آدم عليه السلام

هذا وقد ذكر المؤرخون : أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً : فى عشرين بطناً : فى كل بطن ذكر وأنثى .

وقيل : مائة وعشرين بطناً — وهو قول غريب — والله تعالى أعلم .

وهو عصر اتسم بالصدق ، والتصديق من آدم ، وبدء نشاط إبليس : فى التدليس والإغواء . وضعف الإنسان حيال كذبه وقبحه !

وبذلك تكون المرأة — فى عصر آدم — مماثلة له ، ومطاوعة : فى الخير والشر .

المرأة
فى عصر أبناء آدم عليه السلام

هذا : وبعد أن ولد لآدم من ولد : قامت الخصومات بين الأشقاء بسبب المرأة !

وقد كانت شريعتهم — حينذاك — إباحة زواج الأخ بأخته : لضرورة ذلك ، ولحفظ النسل من الضياع .

وهى ضرورة : لن تقوم بعدها إلى يوم البعث .

التنازع على المرأة

وقد قتل قابيل أخاه هابيل ، وكان أول قتل فى البشرية : مصداقاً لقول الملائكة لرب العزة ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ .

وقد ذكر أن سبب هذا القتل : هو التنازع على المرأة : شأن بنى الإنسان فى سائر العصور !

وهذا العصر : قد اتسم بإنشاء جريمة القتل ابتداء من غير سبق .

كما اتسم أيضاً بالتطلع إلى نساء الغير : فقد تطلع قابيل إلى امرأة هابيل . ورأى أنه أولى بها منه فقتله !

وقد شاع القتل بعد ذلك ، وفشا الفساد : فشواً ذريعاً بين العباد . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

المرأة فى عصر نوح عليه السلام

هذا : وبعد ذلك توالت العصور والدهور ، ولكن التاريخ لم يبين لنا بياناً كافياً فيما نحن بسبيله : حتى عصر نوح ، وهو أبو البشر الأصغر : كما يقولون .

وكذلك القرآن الكريم — وهو عمدتنا فى كل ما نقول ، أو ندع — لم يذكر ما بين آدم ونوح عليهما السلام ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ .

وقد كذبه قومه وآذوه إيذاءاً بليغاً !

قال تعالى ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ أى مجنون : عولج بالسب والضرب : فلم يرتجع ، ولم يثب إلى رشده ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب ﴾ على أمرى ﴿ فانتصر ﴾ لى من هؤلاء المكذبين الطاغين !

دعوة دعاها نوح على قومه : فانتصر له ربه ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء ﴾ ماء الأرض المتفجر من العيون ، وماء السماء المنهمر من السحاب ﴿ على أمر قد قدر ﴾ قدره المولى سبحانه بإهلاك هذه الأمة الظالمة الباغية .

نبع الماء : من الأرض ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ ومن مصادر النار ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ وفتحت السماء أبوابها بالمطر المنهمر : غير المعهود .

وشتان بين المطر النازل بالرحمة والمنفعة : والمطر النازل بالعذاب والنقمة !

كفر امرأة نوح عليه السلام

وقد امتاز عصر نوح عليه السلام : بعدم طاعة المرأة لزوجها : بل بكفرها فى سبيل الكيد له !

وهذا يعنى فسق المرأة فى هذا العصر ، وسوء تربيتها لولدها ، وحمله على عصيانه !

والأم مدرسة كما يقولون ، فكانت مدرسة طائشة فاسدة !

﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل ﴾ عن أبيه ، وعمن آمن به . إذ قال له أبوه نوح : ﴿ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ فامتنع عن طاعته . و ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ النازل بقسوة وقوة ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ إلا من رحمه الله تعالى بالإيمان !

يدعو نوح ابنه للنجاة من الخطر المحدق المحقق : فيأبى إلا اتباع الكفرة الفجرة !

هذا وقد بلغ من فسق امرأة نوح : أنها كانت تحرض أعداءه عليه ، وتأمرهم بالسخرية به ، والاستهزاء منه .

وقد دمغها القرآن الكريم بالزنا : وهو شر ماتدمغ به امرأة !

يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ حينما غلبه الأسا على مصير ولده : وقد خسر الدنيا حالا ، وسيخسر الآخرة مآلا .

ابن نوح : كان ابن زنا

﴿ قال رب ان ابنى من أهلى وإن وعدك الحق ﴾ الذى وعدته لى بإنجاء أهلى .

وقد غاب عن نوح عليه السلام : أن الأهلية المرادة : أهلية الدين ، لا أهلية النسب .

وقد أشار إلى ذلك أبو فراس بقوله :

كانت مودة سلمان : لنا نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

يؤيد ذلك : قوله تعالى ﴿ قال يانوح انه ليس من أهلك ﴾ بل هو منتسب إلى الكافرين ، سالك مسالكهم ، سائر فى طريقهم : فى مخالفتك ، ومحاربتك ، والكفر بما جئت به ! ﴿ انه عمل غير صالح ﴾ أى ليس بابنك ، ولا من صلبك ، وإنما هو نتيجة عمل فاسد : ﴿ غير صالح ﴾ وهو الزنا : كما قدمنا .

هذا : وقد هال قوم من المفسرين : نسبة الزنا إلى امرأة نوح ، وأنه ليس بجائز أن يحصل الزنا فى أهل بيت من بيوت الأنبياء !

وقد غاب عنهم : أن الكفر قد حصل قطعاً فى غير بيت من بيوت النبوة ، ولم يقل أحد : إن الكفر : أقل جرما من الزنا .

هذا فضلا عن أن المولى سبحانه وتعالى قد دمغ امرأة نوح ، وامراة لوط بالزنا : حين قال ﴿ وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ .

وقد أورد إمام المفسرين : ابن جرير الطبرى هذا المعنى بأكثر من عشر طرق : رواية معنعنة ، صحيحة !

وهذا العصر : كان يتميز أيضاً بفساد المرأة ، وعدم قدرة الرجل على تطويعها !

فهذه امرأة خير الناس — فى عصره — لم تستطع خيريته : أن تتغلب على شرورها !

فما بالنا بباقى القوم : من عامة الناس ودهمائهم !

المرأة
فى عصر ابراهيم عليه السلام

وهو عصر : يتميز بطاعة المرأة لزوجها : طاعة عمياء : لا اعتراض معها ، ولا جدال فيها !

تنفذ المرأة : ما يراه زوجها : ولولم يتقبله عقلها !

تنفذ ما يراه زوجها : ولو كان الذى ارتآه : متلفاً ، مهلكا فى نظرها !

رحلة ابراهيم بزوجه هاجر وابنه اسماعيل
إلى أرض قاحلة مجدبة

ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام : حين أمسك بيد امرأته « هاجر » وساقها مع رضيعها اسماعيل إلى أرض جرداء : لا نبات فيها ولا ماء ، لا زرع فيها ولا ضرع !

وبعد ذلك يتوجه إلى خالقه ، وكالئه : سبحانه وتعالى قائلا ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ .

استجابة دعاء ابراهيم عليه السلام

وقد استجاب له مولاه . فجعل من نسله كل من أقام الصلاة ، وجعل أفئدة الناس تهوى إليهم ! ورزقهم من ثمرات الأرض وخيراتها : ما لا حصر له .

فصارت تحمل إليهم الثمرات — من كل صوب وحدب — حتى إنهم ليأكلونها : قبل أن يتذوقها غارسوها ، وجانوها ، وحاملوها !

وهو أمر مشاهد محسوس ملموس ! وكل ذلك استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام !

فانظر إلى مبلغ طاعة امرأة إبراهيم لإبراهيم ، ومبلغ وثوقها به !

وأنه لا يفعل إلا ما فيه خيرها ! ولو أن ذلك الخير غير واضح لها ، وغير مستقر في مفاهيمها !

هذا : ولا صحة لما يرويه القصاص ، ورواه بعض المحدثين : من أن هاجر لما ولدت اسماعيل : غارت منها زوجه الأخرى « سارة » وقالت له : غيب عنى وجهها ، فلا أريتها .

وأنها حلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها .

وأن إبراهيم : استجابة لسارة : أخذ هاجر وابنها ، وألقى بهما فى هذه الصحراء الموحشة ، فما هذا من أخلاق الصلحاء . فما بالك بالأنبياء .

فجميع ذلك : من أباطيل القصاص ، وأراجيف أصحاب السير .

وما كان لنبي أن يفعل ذلك : إلا عن طريق الوحى الذى لا يكذب ، واتباع الأمر الذى لا يخالف !

هذا : ولم يسق المولى سبحانه وتعالى هذه القصة وأمثالها : إلا لنتعظ بما جاء فيها : ونعمل بأحاسنها !

المرأة

في عصر الذبيح اسماعيل عليه السلام

وهو عصر تميز أيضاً بطاعة المرأة ، وموافقتها لزوجها : فى كل ما يأخذ ويدع .

ووجوب مفارقتها — على الفور — إذا اشتكت زوجها من ضيق فى الرزق : لا يد له فيه .

لأنها — فى هذه الحال — غير راضية عن تقدير الله تعالى ومقدوره ، وغير محبة لزوجها : الحب الكامل : الذى يلزمها بالحياة معه على أى حال : ما دام غير قادر على التوسعة : مع سعيه الدائب الحثيث فى العمل ، وطلب الرزق !

المرأة التى تشكو من زوجها

فقد رووا — فيما رووا — أن إبراهيم : جاء لزيارة إسماعيل عليهما السلام — بعد أن تزوج — فلم يجده ، ووجد زوجته : فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا .

فسألها عن حالهم . فقالت نحن بشرّ حال : فى ضيق وشدة !

فقال لها : أقرئى زوجك السلام ، وقولى له : يغير عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل ، وذكرت له ما حدث فى غيبته . قال لها : هذا أبى ، وقد أمرنى بفراقك ، فالحقى باهلك . وسيرها معززة إلى أهلها ، وتزوج بغيرها .

المرأة الفاضلة الصابرة

فلما عاد إبراهيم — فى العام القابل — ووجد الأخرى : فسألها عن حالها ؟ فقالت له : نحن بخير حال : أدام الله علينا سعته ورضاه !

قالت ذلك وقد تكون أشق حالا من الأولى ، ولكنها الأخلاق الفاضلة : فى المرأة الكاملة ! التى يجب أن تتحلى بها المرأة : فى سرها وعلنها !

تكون عوناً لزوجها ، وستراً لحاله معها !

فلا تشكوه لأحد ، ولا تكشف حاله ! أليست سكناً له ، وموطن مودة ورحمة !

المرأة
فى عصر لوط عليه السلام

هذا : وقد كان عصر لوط : كعصر نوح عليهما السلام : انفلات المرأة عن طاعة زوجها ، وخبثها ، ومحاربته ، وممالاة أعدائه عليه !

إتيان الرجال من دون النساء " اللواط "

وقد تميز هذا العصر — دون سائر العصور — بإتيان الرجال ، دون النساء ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ أى كيف تدعون ﴿ ما خلق لكم ربكم ﴾ من الحلائل الأطهار : اللاتى بهن تتحقق المتعة ، وتسكن الشهوة ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ معتدون على حقوق الله — وقد نهاكم عنه — ومعتدون

على أزواجكم : بالانصراف عنهن — ومن الحلال الطيب — إلى الرجال : وإتيانهم من أخبث الخبائث !

هذا : وانصراف الرجال عن النساء : فيه من الإذلال لهن ما فيه ! وتعريضهن للفجور والفسق .

هجر المرأة
تحقير لشأنها، وإهدار لأنوثتها

ألا ترى إلى قوله تعالى فى تأديب النساء ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ .

ففى ذلك الهجر : إهدار لأنوثة المرأة ، وتحقير لشأنها ، وإهمال لما تبتغيه : من ولد ، ولذة ! خلقتا بها ، وأعدا لها !

هذا وامرأة لوط : كامرأة نوح : فى الفسق والكفر !

وقد سوى بينهما المولى سبحانه وتعالى : فى غير موضع من كتابه الكريم !

وقد كانت امرأة لوط : تحث أعداءه على مهانته ، والاعتداء عليه !

فقد أثارتهم عند ما رأت ملائكة الرحمن يدخلون عليه : على صورة أحسن ما يكون من الرجال ، وأجملهم !

وقد جرت عادة المولى سبحانه وتعالى : أن يرسل رسله ، إلى رسله : فى أكمل صورة : استئناساً لهم ، وتسكيناً لخواطرهم !

رؤية محمد لجبريل عليهما الصلاة والسلام

فلم ير إمام الرسل محمد : جبريل عليهما الصلاة والسلام على صورته : سوى مرتين ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾ ليعلمه من هو .

وبعد ذلك : كان جبريل عليه السلام : يأتيه فى صورة دحية الكلبي .

وقد كان دحية : ممن اشتهروا بحسن الخلق والخلق !

امرأة لوط ، وكيدها له

فلما دخل الملائكة على لوط سراً : قامت امرأته بتحفيز قومه عليه ، وإثارتهم ضده ، وضد أضيافه !

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ لأنه كان يعلم خبث قومه ، وما يأتونه من مناكير ، وذلك قبل أن يعلم أنهم من رسل المولى سبحانه وتعالى .

﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ بعد أن وشت إليهم امرأة لوط : بوجود هؤلاء الأضياف ؛ حسنوا الوجوه ، جميلوا الخلقة ﴿ قال ياقوم هؤلاء بناتى ﴾ ويعنى بهن : بنات أمته . لأن كل نبي : أب لسائر أمته !

﴿قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ وهو إتيان الرجال . من دون النساء .

فلما رأى الملائكة : ما حل بلوط من حزن ، وأسى ، وابتئاس : بما يقولون ، وما يفعلون ﴿ قالوا يالوط ﴾ لا تخف ، ولا تبتئس ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ بسوء . فسنهلكهم جميعاً : بأمر ربنا ﴿ فأسر بأهلك ﴾ والمراد بأهله : كل من آمن به . فابنه : ليس من أهله : لأنه لم يؤمن به !

والمراد : سر بأهلك ليلا . لأن الإسراء : هو السير بالليل .

﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ خلفه : لئلا يكون ذلك تعذيباً له : بما يراه من تعذيب القوم : وفيهم من يمت إليهم بسبب ، أو نسب .

﴿ إلا امرأتك ﴾ فدعها ، ولا تأخذها معك ، وحالها — فى صحبتك — كما قدمنا ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ من العذاب والهلاك !

أليست هى التى تحضهم على الفجور والكفر ، وتؤذى زوجها مع من كانوا يؤذونه !

إهلاك قوم لوط عليه السّلام

يقول المولى عز وجل : فى وصف هذا العذاب البالغ الشدة ، والأخذ البالغ القسوة ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ فى الوقت الذى حددناه لتعذيبهم ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ .

يا للهول ! رفع جبريل قريتهم : بما فيها ، ومن فيها : حتى رأوا الأفلاك ، وسمعوا تسبيح الأملاك ؛ ثم قلبها : رأساً على عقب .

ولم يكتف المولى : الحميد المجيد ، ذى البطش الشديد ، الفعال لما يريد : لم يكتف بذلك ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ أى حجارة من نار متتابعة !

فكانت الحجارة ، لا يكتفى بثقلها : بل كانت مشتعلة أيضاً .

هذا : ولم يتوهم قوم لوط : نزول العذاب بهم ، لأنهم كفروا برسالته ؛ وبالتالى : لم يصدقوا وعده . ولا وعيده !

وقد وصف المولى سبحانه وتعالى ذلك بقوله :

﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ .

وهذا العذاب : الذى نزل بقوم لوط : من أفتك ، وأقسى ما عذب به المولى سبحانه وتعالى الكافرين !

وهو يدل دلالة قوية ، واضحة على فحش جرمهم الذى كانوا يأتونه : مما استوجب غضب المولى الرحيم ، الجبار عليهم ، وفتكه بهم ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ .

هذا : وقوم لوط : هم أول من فعل هذه الفاحشة الشنعاء ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

وبلغ من مزيد قبحهم ، وشدة فحشهم : أنهم كانوا يرتكبونها علانية : أمام بعضهم ، ويتباهون بهذه الفعلة : البذيئة ، الخبيثة ، المنكرة ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ .

حكم اللواط

هذا وحكم اللواط : كحكم الزنا .

ألا ترى إلى قوله تعالى إلى قوم لوط ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ فوصف اللائطين بالعدوان : كما وصف الزانين بقوله ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ فوجب أن يكون حد اللائط : كحد الزانى .

وذهب قوم إلى وجوب إلقائه من حالق : كجبل ، أو جب ، أو مكان مرتفع ، ونحو ذلك .

كفر من قال بجواز إتيان المرأة فى دبرها

هذا : وقد ذهب بعض السفهاء ، وتابعهم كثير من المفسرين : إلى أن معنى ﴿ وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ بمعنى وتتركون مثل ذلك من أزواجكم : بمعنى إتيانهن فى أدبارهن ، وأنه لولم يبح مثل ذلك من الأزواج : لما صح معنى الآية .

ونسب بعضهم هذا المعنى الفاسد لبعض فضلاء الصحابة ، والتابعين : رضوان الله تعالى عليهم .

ونسبوا ذلك أيضاً إلى الإمام مالك .

وقد أنكر الجميع ما نسب إليهم حال حياتهم .

وهذا القول — رغم فحشه ، ومخالفته للعرف ، والذوق ، والحياء — فإنه يكفر من يقوله ، ويستبيحه ، أو ينشره بين جمهرة المسلمين .

وهو بالغ القبح والشناعة ، ولا يرتضيه عاقل من البشر !

إنما أريد ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ مما فيه تسكين الشهوة : إذ أن لذة الوقاع : حاصلة بهما جميعاً — إن صح أن فى الدبر لذة —

وقد حرم الله الفرج — وهو الحلال الصريح — حال الحيض : من أجل النجاسة العارضة ، فأولى أن يحرم الدبر من أجل النجاسة اللازمة !

وقد روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : تكفير من فعله !

وهذا أنسب وأولى بالشرع الشريف ، وبالسنة المطهرة ، وبما جاء به القرآن المجيد !

وبذلك يكون عصر لوط عليه السلام : من أسوإ العصور ، وأشنعها !

فقد فسد نساؤها ، كما فسد رجالها !

كذب ما جاء فى الأناجيل عن لوط

هذا : ومن أعجب ما حكته الأناجيل المبدلة — عن لوط — أن امرأته قد سقته خمراً حتى سكر ، وغاب عن وعيه ، فأمرت ابنتيه منها أن يتعرضا له — فى حال سكره — فتعرضا له : فزنى بهما ، وأنجبتا له !

بمثل ذلك الإفك : يتحدث الإنجيل — وما هو بإنجيل — عن فضلاء البشر من الأنبياء : الذين أرسلهم مولاهم لهداية الخلق . فعاثوا فى الأرض فساداً وإفساداً ، وسفاداً : كما يزعمون !

فتباً لهم ، وسحقاً : لما يقولون !

المرأة
فى عصر أيوب عليه السلام

وهو عصر : تميز بانقطاع المرأة لخدمة زوجها ، وعدم تخليها عنه : مهما أصابه من ضر ، ومهما أصابها من شدة : لحقتها بسبب الضر الذى لحقه ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

هذا : وقد كان الضر الذى أصابه : هو فقدان ماله ، وموت عياله ؛ ومرض أصابه فى جسمه : كسائر الأمراض التى تعترى بعض الناس .

مرض أيوب : لم يكن منفراً كما زعموا

أما ما حكته كتب السير ، والقصص الذى قصوه فى قصص الأنبياء ، فهو مما لا يرتضيه عاقل ، ولا يستسيغه إلا جاهل !

فقد رووا — فيما رووا — أن أيوب قد أصيب فى بدنه : حتى تناثر الدود من لحمه وسائر جسده ؛ وأنه ألقى فى مزبلة خارج المدينة ، وأن أخويه جاءا لزيارته : فلم يستطيعا القرب منه : لنتن ريحه !

والعجب كل العجب — إن صح ذلك وليس بصحيح — أن يرسل المولى سبحانه وتعالى رسولا إلى الناس : يتأفف المرسل إليهم من رؤيته أو الاقتراب منه !

يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ وهو ضر المرض ﴿ وآتيناه أهله ﴾ الذين فقدهم بالموت ﴿ ومثلهم معهم ﴾ أى رزق من الأولاد ضعف ما كان عنده وفقده ﴿ رحمة من عندنا ﴾ فعوضه تعالى : مكان الزوجة : زوجتان ، ومكان كل ولد فقده : ولدان ؛ رحمة من لدن المولى جل شأنه ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ .

هذا والذى يدل على أن الضر الذى مس أيوب : إن هو إلا ضر مسه من الشيطان ! وما أسوأ مس الشيطان اللعين !

قول الله تعالى ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ والنصب : هو التعب المضنى !

والنصب والعذاب : هما ما ناله من ذهاب ماله ، وفقد أهله وولده !

قيل : وسوس إليه الشيطان بأن يسأل ربه البلاء : ويمتحن نفسه ، ويجرب صبره عليه : فابتلاه المولى بما ابتلاه : فلم يطق صبراً ، وجأر إلى مولاه بالدعاء .

وما أشبه ذلك بما حصل للعارف بالله : ابن الفارض رضى الله تعالى عنه ؛ حيث قال : مخاطباً مولاه جل شأنه :

وبما شئت فى هواك اختبرنى فرضائى : ما كان فيه رضاكا !

فابتلاه مولاه : الرحيم الودود بما لم تحتمله قواه !

فجعل يئن ليله ونهاره ، ويجرى فى الأسواق . فإذا وجد صبية يلعبون : قال لهم : استغفروا لعمكم الكذاب !

وذلك : لأنه طلب من ربه الشقاء ، وكان الأجدر به أن يطلب من مولاه : السعادة والشفاء !

وقد كان سيد الخلق وإمامهم عليه الصلاة والسلام : يطلب من مولاه جل شأنه : الأمن والعافية ، ويستعيذ من البلاء والشقاء ! وهو خير من يقتدى به !

هذا : وقد مكث أيوب عليه السلام فى شقائه ردحاً من الزمن ، وبلغ من حاجته وافتقاره إلى الطعام : ما حدا بامرأته أن تبيع شعرها : فى سبيل القوت الضرورى !

نذر أيوب بضرب امرأته

فلما علم أيوب بذلك : أقسم ليضربنها مائة . وذلك لما رآه من شدة جزعها ، وبيع ذوابتها : بغير يقين بالله سبحانه وتعالى !

وقد رحمها مولاها : لما تحملته من أذى الفاقة ، وكابدته من مرض زوجها ، والإخلاص فى خدمته ـ ورعايتها له ـ بأن أحلها من الضرب الموعود .

فقال جل شأنه لأيوب ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ حزمة صغيرة : من حشيش الأرض ، والضغث : ملء الكف ﴿ فاضرب به ﴾ امرأتك ﴿ ولا تحنث ﴾ أى وبذلك لا تكون حانثاً فى قسمك : الذى أقسمته بضربها مائة .

فأى امرأة فاضلة هذه : تتحمل عناء الجوع ، وشظف العيش ، والسعى وراء اللقمة : بما يضطرها إلى بيع ذوابتها .

وبعد ذلك تتحمل وعيد زوجها بالضرب والإيذاء ، فلا يحملها ذلك على بغضه ، أو الحقد عليه .

كل هذا فى سبيل طاعة الزوج ، ورحمته فى مرضه ، والعدام قدرته !

ولو كانت هذه المرأة من نساء اليوم : لما وسعها سوى إهماله ، وتركه : يجتر الآلام ، ويعانى الأسقام ، ولطالبت بطلاقها منه ، وفراقه إلى الأبد !

وهذا مابدا لنا فى عصر أيوب عليه السلام ، ولم نعثر على ذكر لنساء عصره : غير ماذكرناه من حال امرأته : التى تسامت على بنات جنسها ، وتعالت على زوجات عصرها ، بل على كثير من العصور : وضربت مثلا عالياً : فى الصبر ، والحب ، واحتمال الأذى .

وما وجدت فيما قرأت وسمعت : امرأة صابرة ، محتسبة ، مكابدة ، صديقة ، بارة : بدينها وزوجها : مثل امرأة أيوب عليه السلام !

رحمها الله تعالى ، وأجزل مثوبتها ، ورضى عنها وأرضاها !

المرأة
فى عصر موسى عليه السلام

وهو عصر : يتميز بصلاح المرأة ، ونقواها ، واتباعها لما توحى به الفطر السليمة !

ألا ترى : صدق إيمان آسية امرأة فرعون : رغم مخالطتها الفجرة ، والكفرة ، وزواجها من فرعون : أصل الكفر وعماده وأعدى أعداء الله سبحانه وتعالى .

وقد بلغ من علو شأنها ، وصحة إسلامها ، ورفعة قدرها : أن ضرب الله تعالى بها الأمثال : فى أصح كتاب وأنقاه ، وأوفاه !

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ .

فأثبتت — بدعائها هذا — إيمانها بربها ، ويقينها بآخرتها ، وبغضها لمن أبغضه الله — ولو كان زوجها وضجيعها — وهذا هو كمال الإيمان !

لذا رفع المولى جل وعلا شأنها ، وقرن اسمها بمن فضلها على نساء العالمين ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ .

فامرأة فرعون : ساواها ربها تعالى بمريم ، وساقهما فى صعيد واحد .

وألا ترى أيضاً إلى أم موسى : وقد ألقت بفلذة كبدها فى اليم : اتباعاً لما أوحى إليها ربها به ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ .

جواز اختيار الفتاة لزوجها

وانظر أيضاً إلى شعيب وابنتيه . وكيف اختارت إحداهما زوجها : كناية . إذ قالت ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ .

فذكرت لأبيها : خير ما يوصف به الزوج : من القوة والأمانة !

وكيف أن أباها : قد علم ما أرادته بتكنيتها ، فقال لموسى ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ﴾ أى تمهرها لى بأجرتك على عملك عندى ثمانى سنوات .

وهذه السياسة : فى اختيار الفتاة لزوجها ، وخطبة والد الزوجة له : هى من أجلّ ، وأجمل ، وألطف السياسات فى الزواج . ولعل الذين يسمعون ذلك يفقهونه ، ويتدبرونه .

وقد ساقها المولى الحكيم الرحيم : فى كتابه المجيد الكريم : لنتأسى بها ، ولنسير على هديها !

وليس معنى ما قدمناه : أن كل نساء هذا العصر : كن كلهن مؤمنات ، صالحات ، قانتات : فلكل عصر من العصور : فيه ما فيه من الطيبات والخبيثات !

وإنما أردنا أن نبين السمات البارزة فيما ذكرناه .

عفة موسى عليه السلام

ولا يخفى ما صاحب ذلك : من عفة موسى عليه السلام فى النظر إلى ابنتى شعيب ، وما بذله لهما — رغم شقائه وتعبه — من مساعدتهما فى السقيا ﴿ فسقى لهما ﴾ .

وانظر إلى تأدبهما فى مخالطة الرجال ﴿ ولما ورد ﴾ موسى ﴿ ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ أغنامهم ﴿ ووجد من دونهم امرأتين ﴾ هما بنتا شعيب ﴿ تذودان ﴾ أغنامهما عن الماء : خشية اختلاطهما بالرجال : اختلاطاً يحط من شأنهما ، ويذهب وقارهما وكرامتهما .

كاختلاط نساء اليوم : فى المحافل ، والمراكب ، بل والمراقص ! فلاحول ولاقوة إلا بالله !

أشد الناس فراسة

قيل : أشد الناس فراسة ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿أكرمي مثواه﴾ .

وصاحبة موسى — ابنة شعيب — حين قالت ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ .

وأبو بكر : حين استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب : رضى الله تعالى عنهما .

المرأة في بني إسرائيل

هذا وبمناسبة ما ذكرناه من عصر موسى : نذكر طرفاً من سيرة بنى إسرائيل — رجالا ونساءاً — وهم فى الأصل : أصحاب موسى الذى أرسل إليهم مع أخيه هرون ! عليهما السلام .

وبنى إسرائيل : ليسوا فى حاجة إلى تعريف .

فما أشبه أول شأنهم بآخره !

فقد كان أول شأنهم : الكفر بربهم ، وتكذيب رسولهم ، وعبادتهم العجل .

فإذا علمنا أن العجل قد صاغه السامرى من حلى نسائهم : استبان لنا أن نساءهم كن يتحلين بحلى كثيرة ، ويتزين بزينة لا حدود لها .

حرص اليهود على الرذيلة وجمع المال

فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما علمه سائر الناس : من حرص رجال بنى إسرائيل على جمع المال : من أى طريق كان — حلالا أو حراما — ولو كان ذلك على حساب : فساد الأخلاق والأعراض ، وفشو الفساد والسفاد .

إذا علمنا ذلك : تيقنا أن المرأة فى ذلك العصر كانت فاسدة : لا تتخلق بأى خلق كريم ، ولا تتحلى بأى صفة يرتضيها الكمال الإنسانى !

وكيف تتحلى المرأة بالأخلاق الفاضلة : وزوجها يحضها على الرذيلة ، ويدفعها إليها دفعاً : رغبة فى المال !

وهذا شأن بنى إسرائيل فى كل عصر من العصور !

المرأة

فى عصر داود عليه السلام

وهو عصر يتميز بترك المرأة على سجيتها : تفعل ما تشاء . حتى إنها لتبدو عريانة مع لداتها وأقرانها : كما يفعل نساء اليوم على شواطىء البحار : مما تهتز له الخواطر ، وتشمئز منه النفوس !

وليس معنى ذلك : تصديق ما أورده القصاص — زوراً وبهتاناً — عن داود : كما سنبينه .

وإنما سيقت هذه الأكذوبة ، وتلك الفرية : لأن ذلك كان من عادة المرأة وقتذاك .

الفرية التى ألحقها اليهود والقصاص بداود

فقد روى القصاص — وتابعهم كثير من المفسرين والمحدثين — أن داود عليه السلام : رأى امرأة عريانة . فأعجب بحسنها ، وجمال جسدها ، وسأل عنها : فقيل له : إنها امرأة أوريا (أحد جنوده) .

فأرسل إليه ، وسيره على رأس جيش : قاصداً قتله ، لا جهاده !

فذهب بالجيش ، ثم عاد منتصراً ، فأرسله ثانية : فعاد منتصراً ، فأرسله فى المرة الثالثة : فقتل فى الموقعة ، ووافق ذلك رغبة داود ، إذ خلا له الجو : فتزوج بمن رآها وأحبها !

يا للهول : نبى من أنبياء الله : الذين اختارهم مولاهم لهداية عبيده : يقتل رجلا : ليتزوج بامرأته !

فأى فحش بعد هذا ، وأى فجور : يفوق ما نسبوه إلى داود : من فحش وفجور ؟

وقد أورد القصاص أيضاً — تأييداً لما قالوه — أنه كان لداود مائة امرأة ، ولابنه سليمان ألف امرأة .

وهو مما لا يستسيغه عقل ، ولا يلتفت إليه برد .

فأنبياء الله تعالى عليهم السلام : شغلتهم الدعوة إلى الله عن ملذاتهم ، وشغلهم طلب أخراهم عن دنياهم ، وما فيها من متاع ، لا يلتفت إليه سوى السوقة والدهماء .

ولم تكن عظمة المؤمنين بكثرة حيازة النساء : بل بحيازة صالح الأعمال !

وما دفع القصاص والمفسرين إلى ذلك الهراء : سوى ما دونته الأناجيل المبدلة ، والتوراة المحرفة !

فليحذر المؤمن من الوقوع فى هذه الأباطيل ، وتلكم الأضاليل !

وأين عصمة الأنبياء إذن : إذا صح ما قالوه ، وما نسبوه لهم ؟

المرأة

فى عصر سليمان عليه السلام

وهو عصر قد تميز بنباهة المرأة ، ويقظتها ، وطلبها للعلم ، وإحاطتها بكثير من العلوم والفنون !

فبلقيس : لم تؤت الملك وحده : بل ﴿ وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ .

وحسن تفهمها لكتاب سليمان ، وتعرفها اقدره ﴿ قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وديموقراطيتها فى معاملة شعبها ، ومناقشتها لأهل مملكتها ، وكبار قوادها : حين قالت لهم ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ .

وإرسالها الرسل بهدية إلى سليمان — اختباراً له ، وامتحاناً لأغراضه .

كل ذلك يدل دلالة قاطعة على ما أوردناه من نباهة المرأة ويقظتها : فى ذلك العصر .

وردها على سليمان : حين قال لها ﴿ أهكذا عرشك ﴾ فلم تقل : نعم . لبعد ذلك عن المعقول : بل قالت ﴿ كأنه هو ﴾ .

كل ذلك : يدل على رجاحة عقلها ، وبعد نظرها .

أما زعم الزاعمين : أنها ولدت من أب يمنى ، وأم جنية . فهذا ما يجب أن ننزه عقولنا عن مثله !

هذا : وقد زعم الزاعمون : أن لسليمان ألف زوجة : سبعمائة حرائر ، وثلاثمائة سرارى وأنه قال يوما : لأطوفن الليلة على ألف امرأة : تحمل كل واحدة منهن فارساً يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل إن شاء الله : فلم تحمل منهن سوى واحدة : جاءت بطفل سقط أحد شقيه « أى نصف إنسان » .

فمثل هــذه الأقوال : من لغو الكلام ، الذى يجب على المؤمن ألا يلتفت إليه ، ولا يعيره بالا !

إذ أنه من تخريف القصاص ، وأوهام المحدثين .

المرأة

فى عصر زكريا ويحيى عليهما السلام

وهو عصر تميز بتقوى المرأة وصلاحها ، والتزامها بعبادة الله تعالى !

وناهيك بعصر : فيه مريم ابنة عمران عليها السلام ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ .

وقد كفلها المولى سبحانه وتعالى زكريا ﴿ وكفلها زكريا ﴾ .

الآيات التى صاحبت مريم عليها السلام

وقد رأى زكريا من آيات ربه الكبرى : ما رأى ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ﴾ فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف .

والعجب — كل العجب — أن يكون عندها فاكهة ، بدون أن يحضرها لها إنسان : فما بالك بفاكهة : فى غير أوانها وإبانها ! ؟

استجابة الدعاء : عند رؤية الآيات

فلما رأى زكريا هذه الآيات البينات : علم أنه أمام فيض من فيوضات الله تعالى ، وأنه إذا دعا ربه : استجاب دعاءه !

﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ فاستجاب له ربه على الفور ، وبشره بيحيى ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله ﴾ أى مصدقاً بعيسى ﴿ وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ .

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي لم نجعل له من قبل سميا ﴾ فى الطاعة والعبادة ، والإنابة !

لا فى الاسم : كما ذهب إليه جل المفسرين . بل فى المسمى .

﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه ﴾ أى جعلناها تلد : بعد أن كانت عقيما ، وتشبه الصبية : بعد أن كانت عجوزاً .

هذا : وكان نصيب زكريا ويحي : القتل بأن نشروهما — أحياء — بالمنشار .

وفى هذا العصر أيضاً : زوجة زكريا (أم يحي) وحسن عبادتها ، وإنابتها إلى مولاها !

المرأة
فى عصر عيسى ابن مريم عليهما السلام

وهو عصر تميز بتقوى المرأة ، واستجابتها لدعوة الحق سبحانه وتعالى :

فمريم عليها السلام : لم تكن على قمة نساء عصرها فحسب ، بل هى على قمة نساء العالمين جميعاً : من بدء الخليقة حتى انتهاءها !

﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

وكأن المولى سبحانه وتعالى علم أن سينازعها قوم فى هذا الاصطفاء : فيقول بعضهم : إنها ليست بخير من عائشة : أم المؤمنين ، وليست بخير من فاطمة : ابنة محمد .

ونحن نجل عائشة وفاطمة ، ونعلو بقدريهما فوق كل أقدار المخلوقين !

ولكن المولى سبحانه وتعالى : لم يكتف بقوله لمريم ﴿ إن الله اصطفاك وطهرك ﴾ بل كرر اصطفاءه لها بقوله جل شأنه ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

اصطفاء مريم على نساء العالمين جميعًا

ولا حجة لمن يقول : عالمي زمانها . إذ أن اصطفاءه تعالى : واضح ، ظاهر ، مكرر .

ولا حجة أيضاً لمن يقيس ذلك : بما خوطب به بنو إسرائيل ﴿ يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ إذ هو خطاب لقوم : طغوا ، وبغوا ، وشقوا عصا الطاعة ، واستبدلوا نعمة الله كفراً ! فالسياق : يدل دلالة قاطعة على أن تفضيلهم — وقت أن فضلهم الله تعالى — كان على عالمي زمانهم فحسب .

أما مريم : فقد اصطفاها مولاها ، وسيظل اصطفاؤه لها حتى قيام الساعة .

وهذا لا يطعن في حبنا وإكبارنا لمحمد المختار ، وآل محمد الأطهار !

إعاذة مريم وذريتها من الشيطان

وقد أعاذ الله تعالى مريم وذريتها من الشيطان اللعين : مصداقاً لدعوة أمها — التقية ، البارة — عند مولدها ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

ولم تكن مريم عليها السلام وحدها : القانتة ، العابدة !

ولو أنها فوق مستوى العبادة ، والقنوت : بمراحل لا يدركها إلا من اصطفاها وطهرها !

بل كانت أمها أيضاً : زوج عمران رضي الله تعالى عنها ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ حين حملت بمريم ﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ .

فتقبل منها مولاها نذرها ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ .

وما كان ثمرته مثل عيسى : فذاك أحسن النبات !

المرأة

فى عصر يعقوب عليه السلام

وهو عصر : تميز أهله بالصلاح والتقى : كما تميز بعض أهله بالحقد والغيرة !

فيعقوب عليه السلام : تزوج غير واحدة : فأنجب من كل منهن أبناء : كانوا سلوته وزينته ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ .

وقد دبت الغيرة فى بعض بنيه — من يوسف عليه السلام — لحسنه وجماله ، وانفراده بمزيد حب أبيه له من دونهم .

وقد نزغ الشيطان بينهم : يغريهم بيوسف .

فمن قائل : اقتلوه ، ومن قائل : اطرحوه أرضاً : لا يستطيع العودة منها ، ومن قائل : ألقوه فى غيابة الجب .

فأوحى إليهم الشيطان اللعين : أن يقتلوا أخاهم : لينفردوا بحب أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ فأرسله معهم — رغم توجسه منهم ، وإحساس قلبه بكيدهم له !

فسول لهم الشيطان أن يلقوه فى الجب — بعد أن اختلفوا فيما بينهم — هل يقتلوه أم يلقوه ؟ ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ الخ ما جاء مفصلا فى سورة يوسف وسنذكر طرفاً من ذلك عند ذكر عصره عليه السلام .

ولا ندرى : أين أمهات هؤلاء الأبناء فى هذه القصة ؟ وأين تقويمهن لأبنائهن ؟

وأين الرحمة : وقد خلت قلوبهم منها ؟

كل ذلك يدلنا دلالة قاطعة على أن نساء هذا العصر : لم يكن على خلق قويم ! ولو أنهن لم تشع فيهن الفاحشة : كقوم نوح ولوط عليهما السلام .

وقد أورد المولى هذه القصة : ليتعظ الآباء : فلا يفرطوا فى حب بعض الأبناء : دون البعض الآخر : فتشيع بينهم البغضاء ، المؤدية إلى الإيذاء ! بل إلى القتل فى كثير من الأحيان !

المرأة

فى عصر يوسف عليه السلام

وهو عصر : تميز بظهور المرأة على طبيعتها ، وسيرها على سجيتها : تعشق ، وتكيد لمعشوقها ، وتتزين لغير بعلها .

وهذا جزء مما ابتلينا به الآن ، واستوجبنا به الذلة والهوان !

فقد تزينت المرأة ليوسف ﴿ وقالت هيت لك ﴾ وأرادت بيوسف السوء ، واسبته إليه : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله . . وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ .

ثم خشيت على يوسف — وقد شغفت به — من زوجها بأن ينتقم منه بالقتل : فحددت لزوجها العقوبة التى تريدها له ، والتى قد تمكنها من نيله . فقالت ﴿ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

متوهمة أن السجن أو التعذيب قد يطوعا يوسف : فينزل على مرادها .

ولكن أنى لها ذلك ، ويوسف محفوظ — بأمر ربه — من الشيطان الرجيم !

يوسف : من عباد الله المخلَصين

فيوسف : من عباد الله المخلصين ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

وقد حيل بين الشيطان ، وبين إغواء المخلصين من عباد الله ﴿ ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

براءة يوسف من الهمّ المردى

هذا وقد غفل جل المفسرين — إن لم يكن كلهم — عن هذه الآيات : كبيرة الدلالة على عصمة الأنبياء ، عظيمة الأثر فى طهارتهم من الآثام : عليهم الصلاة والسلام !

واتبعوا أحاديث القصاص ، وأكاذيب اليهود الملاعين !

فذهب بعضهم إلى أن همّ يوسف : كان كهمها تماماً ﴿ ولقد همت به وهمّ بها ﴾ .

وأنه عليه السلام : قد قعد منها مقعد الرجل من المرأة ، وجلس بين شعبها الأربع ، وحل تكة سراويلها ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ .

وقد فسروا هذا البرهان : بما لا يصح فى الأذهان !

فقد زعموا أن والده يعقوب عليه السلام : قد ظهر له : عاضاً على أنامله — إشارة إلى جزعه مما يقع فيه ابنه — فلم يرتجع !

وأن جبريل عليه السلام : قد ظهر له ، ماداً يده فى الهواء — أمام ناظريه — مكتوباً عليها ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ فلم يرتجع أيضاً .

فأتاه جبريل : فضرب بيده على ظهره : فسكنت شهوته !

إلى غير ذلك : مما أوردوه من إفك وتضليل ، مما لا يرتضيه أحط الفساق : فما بالك بخير الخلق على الإطلاق !

فإذا ما ظهر لأحدهم : ما زعموا ظهوره ليوسف لذهبت شهوته ، ولانمحت رجولته !

إذ هو من الأمور : الموجبة لانصرافه عن المعصية قسراً وجبراً : لا طاعة واختياراً !

هذا والهمّ هو حدوث الخاطر فى النفس ؛ بين الفعل وتركه . فلا يكتب للعبد أو عليه شىء حتى يصير إلى أحدهما ؛ فإن صار إلى المعصية : زال عنه الهمّ وصار إثماً وخطيئة ! وإن صار إلى الترك : زال الهم أيضاً وصار طاعة وحسنة ؛ والمراد بهمه عليه السلام : ميل الطبع البشرى ، ومنازعة الشهوة الفطرية ؛ لا القصد الاختيارى . وهذا الهمّ مما يصح أن يكتب له به حسنة ، لا أن تحسب عليه سيئة . وهو كميل الصائم فى اليوم الحار إلى الماء البارد ؛ فلم يفطر بذلك الميل . كما أن يوسف لم يأثم بهذا الهمّ . وقد جرت عادة الله تعالى ألا يرسل رسولا إلا مكتمل الصفات الحسنة الجميلة ؛ التى منها تمام الرجولة . يؤيد هذا المعنى برمته : قول يوسف عليه السلام بعد ذلك ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ .

وقد جاء فى الحديث القدسى عن رب العزة : « إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة » وقد تخبط كثير من المفسرين فى تأويل هذا بما يتنافى وعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وزادوا فى ذلك وأعادوا : حتى نزلوا بخيرة الأنبياء ؛ إلى درجة أحط العاصين والسفهاء ؛ ولولا ضيق الصدر والمقام ؛ لأوردت بعض ما سوّدوا به صحائفهم مما يجلب العار على قائله ، والشنار[1] على مصدقه !

قصة : شرف المولى سبحانه رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام باستماعها ، وكرّمه بتبليغها إلى أمته : لتبعث فيهم مدافعة النفس والشيطان ، وتكون لهم درساً من دروس العصمة التى أرادها المولى لأنبيائه وأوليائه ! فحرّفوها . ومسخوها ؛ ونزلوا بمن رفعه الله تعالى إلى سماء المعرفة ، وعزة الكرامة الإنسانية : نزلوا به إلى أرض الخطيئة ، وحضيض الإثم !

---

(١) الشنار : أقبح العيب والعار .

قصة : تصور لنا قمة الإقبال الشديد والرغبة الجامحة ، وقمة الانصراف الملح والتمنع الأكيد ! وهى بذلك ترسم لنا بوضوح كيف يقع الإنسان فى مهاوى الضلال والهلكة : إذا أطاع نفسه وشيطانه (كما وقعت امرأة العزيز) وكيف ينجو بنفسه وإيمانه : إذا حارب تلك النفس : وأطاع ذلك الإيمان (كما نجا يوسف) .

هذا ما أراده الله تعالى فى كتابه المجيد لنبيه يوسف عليه السلام !

أما إذا قلنا بما قاله المفترون ، ونقله الأكثرون : من أن يوسف قد هم بها بمثل ما همت به ؛ وأنه حل تكة سراويلها ، وقعد بين شعبها الأربع ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وأن هذا البرهان كان ظهور أبيه له ، وظهور جبريل . . . الخ ما أوردوه من إفك لا يرتكبه أحط الفساق !

إذا قلنا بذلك : كنا أمام رغبتين جامحتين التقتا : رغبة أنثى فى رجل ، ورغبة رجل فى أنثى . وهذا أمر يحدث بيننا معشر العصاة الخطاة فى كل حين .

فأى عظة ساقها الله تعالى لنا ، وأى عبرة نعتبر بها ؟ ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ .

وحقيقة القول ، وقصارى الفهم : أن أنبياء الله تعالى — وقد عصمهم الله من الزلل ، وأنجاهم من الخطيئة ، وحماهم من الإثم — شأنهم كما قلنا آنفاً : لا ينصرفون عن الخطة المثلى ! ولا يحيدون عن المثل العليا ! كما خلقهم مولاهم ورباهم ! ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ وبرهان ربه : عصمته من الوقوع فيما يقع فيه عامة البشر . ولما كان البرهان : هو الدليل ؛ كان برهان الله تعالى : دليل وجوده وقدرته . فأثبت الله تعالى قدرته بمنعه ، وأثبت وجوده بالحيلولة بينه وبين الوقوع فى الخطيئة ! أرانا الله تعالى برهانه ، وعصمنا بقدرته ، وحال بيننا وبين معصيته ، وهدانا برحمته !

وبذلك تكون المرأة فى عصر يوسف عليه السلام : خاضعة لشهواتها ، مستمرئة لملذاتها ! تسعى إلى البغى بنفسها ، وجاهها ، وتغطيه بكذبها وافترائها .

ولم تكن امرأة العزيز وحدها : الخاضعة لشهواتها : بل النساء اللاتى عبنها ، وسخرن من فعلها ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ .

فإن هؤلاء النسوة : بعد أن عبن امرأة العزيز : غلبتهن الشهوة ، وتحكمت فيهن اللذة : حين جمعتهن لرؤية يوسف ﴿ أكبرنه وقطعن أيديهن ﴾ وعذرن امرأة العزيز فى ميلها ليوسف — وهو بشر — ولم يخطر ببالهن : حرمة ما قلن ، وما فعلن ، وما قالته امرأة العزيز ، وما فعلته !

ولا يشفع لهن : أنهن لم يأتين بفاحشة مبينة ، ولكنهن أتين بمقدماتها .

فالنظرة : لا تورث إلا الحسرة ، والتعلق بأسباب المعصية : كالمعصية تماماً !

فيوسف عليه السلام لو استجاب لامرأة العزيز : لوقعا فى الفاحشة المبينة .

ولو أبان رغبته للنسوة اللاتى قطعن أيديهن — من فرط شغفهن به — ولو بنظرة عطف : لوقعوا جميعاً فى الجرم والإثم !

ولكنه جاء إليهن مرغماً : طاعة لسيدته ، فلما رأى ما رأى : من إقبالهن عليه ، وميلهن إليه : أشاح بوجهه ، وعصم نفسه : شأن فضلاء البشر .

هذا : وكما أن النساء كن كذلك فى هذا العصر : فقد كان من شأن الرجال : الانصراف عن النساء ، ولا ندرى إذا كان ذلك ضعفاً ، أو عزوفاً .

لماذا كانت قصة يوسف من أحسن القصص

وقد وصف المولى قصة يوسف بأحسن القصص ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أى أوثقه وأصدقه !

وإنما كانت قصة يوسف : من أحسن القصص : لأن كل قضية منها كانت عاقبتها : يسر وخير !

فإن أولها : رميه فى الجب — وهو مهلكة — فكانت عاقبته : سلامة وأمن !

وثانيها : بيعه ليكون عبداً ! فاتخذ ولداً !

وثالثها : مراودة امرأة العزيز له ليكون فاسقاً : فعصمه الله تعالى وكان من المخلصين !

ورابعها : دخوله السجن ليكون ذليلا ، فخرج منه عزيزاً ، بل ملكا !

وخامسها : ظفر إخوته به أولا : فظفر بهم آخراً !

وسادسها : عمى أبيه . فرد الله تعالى بصره إليه !

وسابعها : فراق أبيه له ولأخيه : واجتماعه بهما !

فكانت هذه القصة — فى سائر مواطنها — من أسوإ القصص ابتداء . ومن أحسنها انتهاء !

هذا وقد قلت فى هذه القصة :

يوسف الصدّيق عليه السلام

إذا اشتهر الصدّيق بالحُسن بيننا ... فشهرته بالصدق : أحلا من الحُسن

لقد جمع الصدّيق : حسنًا ورفعة ... ففاق جميعَ الناس خُلْقًا بلا مَيْنِ

وقد أبغضوه إخوة لجمالِه ... وحبّ أبيه : نِعْمَ حبُّ أبٍ لِابْنِ

وصالوا عليه : صَوْلةً بربريةً ... كوحشِ فلاةٍ : بالمخالب والقَرْنِ

فقال لهم : ماذا تريدون من أخٍ ... لكم : ليس يؤذيكم برُمْحٍ ولا طَعْنِ

ويبغي لكم خيرًا . ويمنع عنكمُ ... أذى كلّ مُغْتالٍ، ومن كلّ ذي ضِغْنِ

فلم يُغنِ عنه : لطفُه وحديثُه ... إليهم : بتليينٍ برىءٍ من اللَّحْنِ

وذاك لأن الفرق قد كان بينهمْ ... بعيدًا : كبعد الشمس عن دارة الكون

فأين خشاش الأرض: من ملك السما ... وأين سنا الصديق من خبث فرعون
فيا ويلهم: من سوء فعلتهم به ... ويا ويلهم: مما جنوه ولم يجن
وباعوه بيع العبد: أف لفعلهم ... يباع نبي الله: كالعبد والقن
وقد عرضوه للوقوع بتهمة ... فأنجاه رب العرش: والله في العون
رأته زليخا متعة تستلذها ... وهيهات أن تبني به، وهو لم يبن
وهمت به: تبغي شفاء لوجدها ... وهم بها: همًّا بعيدًا عن الظن
وقد زعموا في همه: مثل همها ... كما بينوه في الشروح وفي المتن
لقد وهموا والله: ما كان همه ... بلمس، ولا لمس هناك، ولا عين
وغلقت الأبواب: يا سوء فعلها ... فأنقذه مولاه بالميم والعين[1]

١ـ أي بمعية المولى سبحانه وتعالى له "إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"، ويوسف عليه السلام: كان من المتقين، وكان من المحسنين، وكان من المخلصين! فاستوجب معية الله تعالى بجدارة واستحقاق!

وقد أوعدوه السجن : بعد انتصاره — بريئاً من السوأى ، بريئاً من اللعن

فلم يرتعد للسجن ، بل قال : مرحباً — وأهلاً بتقدير الإله وبالسجن

فللسجن : خير من وقوع بمأثم — وللسجن : خير من مقام على الغبن

نبيٌّ : حباه ربه كل عصمة — فأين الثريا : من ثرى الذنب والوهن

وأين الذي صان الإله خلاله — عن السوء والفحشا ، وأعلاه في الشان

ما الحسن إلا محنة : يبتلى بها — فآه من البلوى ، وآه من الحسن

ابن الخطيب

المرأة

في الجاهليّة قبل الإسلام

وهو عصر اتسم بظلم الرجل ، ووحشيته ، وانتهاكه لحقوق المرأة ، وبغيه عليها ، وإهداره لكرامتها : كإنسان !

فقد كان يجبرها على الفساد ، ويكرهها على البغاء !

لذا جاء القرآن الكريم بالنهى عن ذلك ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ .

وكانت فيما يورث — كسقط المتاع — فإذا مات الرجل عن امرأته : ورثها بنوه : فمن شاء تزوجها ، ومن شاء زوجها لمن يريد !

وهى — فى جميع ما تأخذ وتدع — تحت سيطرة الرجل وسطوته !

إذا شاء أمسكها ، وإذا شاء طردها شر طردة : لا حقوق لها حياله ، ولا يؤبه بها فى أى شىء يتمتع به الرجال دونها : من ملبس ، ومأكل ، ومشرب !

حتى الحيوانات : كانت أحسن منهن شأناً ، وأوسع عناية وتدليلا !

وظلت المرأة على هذه الحال : من الخسف ، والظلم ، والجبروت : حتى قيض الله لها ديناً هو الإسلام ! عاشت فى ظلاله الوارفة : واكتسبت حريتها : بعد عبودية ، ونالت حقها فى الحياة : بعد قيد ومقت ! وارتفعت هامتها : بعد تنكيس ! وعزت بعد ذل !

وصار لها من الحقوق : ما لسائر الرجال ﴿ ولهن مثل الذى عليهن ﴾ .

المرأة
فى أزهى عصورها :
عصر محمد عليه الصلاة والسلام

هذا : وقد جئنا لأزهى عصور المرأة : وهو العصر الذى أردناه بهذا الكتاب .

وإنما قدمنا ما قدمناه : تمهيداً لذكر المرأة فى هذا العصر : وما استفادته من نعمة الإسلام ، ومن شريعة خير الأنام !

قاصدين بذلك اتعاظها بما أصابت من خير ، وما نجت من شر وضر !

أما ما لحقها — فى هذا العصر — من ضر وشر : فإنه لم يكن بسبب الدين القويم : بل بسبب الانصراف عنه ، وسوء تطبيقه ، والابتعاد عن تعاليمه !

سمو المرأة فى عصرنا هذا

فسمت المرأة — فى هذا العصر — سمواً : لم تكن لتطمع فى نيله ، ولا الحيازة بعضه .

فقد ركبت متن الهواء ، وامتطت صهوة الماء ، وولجت كل الأبواب ، وزال عنها كل حجاب .

وتساوت مع الرجل فى كل ما تطلعت إليه : وصار منها الطبيبة ، والمهندسة ، والمحامية ، والأستاذة فى الجامعة . بل والوزيرة !

تساوت مع الرجل ، وزادت : حتى إن بعض الرجال ليطلب المساواة بها ، ونيل ما نالها !

وهل اقتنعت المرأة بما نالت ، أو لا زالت تطلب المزيد ؟

فى ظنى ، بل فى يقينى : أن المرأة لم تكتف بكل ما نالت ، ولو نالت فوقه : مارضيت !

ولا يزال إحسانها فيما عهد إليها : موضع نظر ، تحار فيه الفكر !

فقد أثبت الرجل التفوق عليها فى كل مضمار .

حتى الطبخ ، وخدمة البيت : اللذان تخصصت لهما ، وشغفت بهما : فاق عليها الرجل فيهما ، وبرع فى أدائهما !

فلجأت إلى السياسة تنشد فيها الارتفاع عن الرجل .

عقدة المرأة من الرجل

وهى عقدة نفسية نشأت عند المرأة بسبب طول تعنت الرجل وتحكمه فى مصيرها طوال هذه القرون .

فلم تكتف بالسفور الذى نالته : بعد جهاد مضن : عاونها فيه بعض الكتاب والشعراء .

فطالبت بأن تكون ناخبة : فنالته . فطالبت بأن تكون نائبة : فنالته .

وبعد ذلك : طالبت بالمساواة مع الرجل فى الوظائف : فنالته عدا بعض الوظائف التى أغفلت هى المطالبة بها : لعنفها ومشقتها !

وطالبت بأن تكون وزيرة : فنالته على ضيق من الرجل !

ولا تزال المرأة طامعة فى تولى القضاء : المحرم على النساء !

ولم تقف مطامعها ، ولن تقف عند حد !

وهى تطمع بأن تكون العصمة بيدها ، كما هى بيد الرجل .

هذا وقد انفلت من بين النساء المتعلمات ، العاملات : من اختارت لنفسها زوجاً : ليس من أهلها ، ولا من عشيرتها ، ولا من دينها .

وقد حكم الدين بردة من تفعل ذلك ، ووجوب قتلها حداً !

ولم يستطع أحد من الرجال : أن يوجه إليها اللوم : فضلا عن الحد !

وهن — على لخش ما أتين — قلة تعد على الاصابع .

هذا : ولا يزال بعض الرجال — وما هم برجال — يصفقون لها ، ويمجدون فعلها !

ولم يجسر واحد منهم أن يقول لها : رويداً فقد أخطأت ، بل فى بعض المواطن : لقد كفرت !

وقد فرحت المرأة بما يدعو إليه الرجل من تحديد للنسل : لتتفرغ هى للتبرج والتزين ، والتسكع فى الشوارع ، والمنتديات !

وتتمنى لو أن الله تعالى حماها من الحمل والولادة ، ومتاعبهما ، واختص بهما الرجل من دونها !

تعديل قوانين الأحوال الشخصية

هذا : ومن ضمن تعسف المرأة ، ومجاراة بعض الرجال لها : تملقاً وتزلفاً .

أن شكلت الحكومة لجنة فى وزارة العدل : لتعديل قوانين الأحوال الشخصية ، وكانت تضم نخبة من فضلاء الفقهاء والعلماء المتبحرين فى القانون ، والعلوم الشرعية .

أذكر منهم : الشيخ محمد أبو زهرة ، والشيخ على الخفيف . والشيخ حسن مأمون ، والشيخ أحمد هريدى ، والمستشار على على منصور ، ومفيدة عبد الرحمن المحامية ، وغيرهم من خيرة علماء المسلمين وفضلائهم .

وقد قضت هـذه اللجنة فى صياغة هذا التعـديل زهاء عامين ، وأخرجت المشروع بقانون : واضحاً ، صريحاً ، فصيحاً : يرضى الله تعالى ورسوله ، ويرضى سائر المؤمنين !

ولكن هذا القانون — علم الله — لم يرض النساء ، ومن سار فى فلكهن من أشباه الرجال !

وترنح القانون فى مشيته . وعرض على مجلس الشعب مرات عدة ، فكان نصيبه : لا أقول الانظار ، بل الطعن ، والترك والتسويف ، والتجريح حتى الآن .

ولم يجد هذا القانون مسلماً واحداً يقف بجانبه . ومن واجب سائر المسلمين : أن يقفوا جميعاً بجانبه ، فى هذا نجاتهم من غضب ربهم وبطشه . ولم تدع اللجنة — فى صياغة هذا القانون — قولا من أقوال الفقهاء ، ولا رأياً راجحاً : إلا أثبتوه ، ولا قولا مرجوحاً : إلا نفوه .

وبعد كل ذلك : يتلكأ القوم فى إصداره !

وكأنما يريدون أن تكون العصمة فى يد المرأة دون الرجل ، وأن تكون الحضانة فى يدها : حتى يبلغ الفطيم دور الشيخوخة .

وإلا فماذا ينتظرون بهذا القانون . وقد أقره فضلاء المسلمين الأجلاء ، وشيوخ الفقهاء والمقننين .

ولا أظن أن مسلماً عاقلا يرضى بأن يتحكم فى إصدار هذا القانون النساء . ومن سار فى فلكهن .

أو أن يتحكم فى صياغته أناس لا يمتون إلى القانون بسبب ، ولا إلى الفقه الإسلامى بنسب .

فهذا أمر لا تقبله شريعة ، ولا يقره دين !

تنظيم النسل

هذا : والمرأة دائماً تدعو إلى تحديد النسل .

والدعوة إلى تنظيم النسل : من شر ما ابتلى به المسلمون فى هذا العصر .

يقول الله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾ فهو وحده — جل شأنه — الذى يتولى زيادة المواليد ونقصانها ، وحاجة الـكون لها : وقد خلقه وأبدعه ، وأعد له مايصلحه وينفعه ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ واختياره وإرادته ! فـكم من أنثى لا تلد : مع توافر الأسباب ، والرغبة فى الإنجاب . وكم من أخرى تلد فوق ما ولدت ، وتنجب فوق ما أنجبت !

وقد تـكون الأولى فى سعة ، والأخرى فى ضعة ؛ ولـكنه تقدير الحـكيم العليم : الذى يعلم مالا نعلم ، ويرى ما لا نرى ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ .

وإنه لمن الـكفر الصراح : أن نعتقد أن الله تعالى الذى لا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه . يتركهم — بعد وضعهم — وشأنهم للجوع والضياع ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ !

وقال جل شأنه : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقـكم وإياهم ﴾ وقال عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ .

والدليل فى الآية الأولى : التخلص من الأولاد ؛ لفقر واقع فعلا ﴿ من إملاق ﴾ ، وفى الآية الثانية ؛ التخلص منهم ؛ لفقر لم يقع ، ولـكنه متوقع ﴿ خشية إملاق ﴾ .

وفى الآيتين : نهى عن القتل — والقتل : ليس مما يدعو إليه القائلون بتحديد النسل — وقد رد كثير منهم على من يحتج بهاتين الآيتين .

ولـكن غاب عنهم أن فيها نهى عن القتل ؛ مع إيراد السبب الدافع إليه .

والقتل فى ذاته : قد يكون مرغوباً فيه : إذا كان دفاعاً عن العرض أو النفس . فوجب أن ينظر إلى السبب الدافع إليه ؛ وهو خشية الإملاق .

ومن المعلوم أن خشية الإملاق — كما سنبين فى هذا المبحث — إنكار لقدرة الله تعالى ، وإظهاره جل شأنه بمظهر العجز عن كفاية ما خلق !

فى حين أن من عبيده من يتكفل بإطعام بعض مخلوقاته ، ويقوم بكفالته خير قيام .

وليس من المعقول أن يكون من بين مخلوقات الله تعالى : من هو أقدر من خالقه ، وأصدق منه وعداً !

وقد كانوا فى الجاهلية يقتلون أولادهم من الفقر ، أو خشية الفقر ؛ وهو كفر لا يعدله كفر ! وينطوى تحت جرم قتل الأولاد : جرم هو منه أقبح وأشنع ، وهو جرم الكفر بالله ، وعدم الثقة بوعده الحق ، وقوله الصدق !

وقد قام فى هذا الزمان أناس ينادون بتحديد النسل : بحجة عدم كفاية المواد الغذائية ، والمواد الأولية ؛ لحاجة سكان الكرة الأرضية ؛ الذين هم فى ازدياد مستمر .

ولما أعوزهم الدليل ، وضاق بهم السبيل ؛ قالوا : إنهم لا يعنون تحديد النسل — بمنطوقه ومفهومه — بل يعنون تنظيمه ؛ وغاب عنهم أن التنظيم الذى يريدونه ؛ هو التحديد الذى يعدلون عنه — بل وأشد منه قبحاً ومنكراً — وذلك لأن التنظيم — فى النسل بالذات — يقتضى سد الحاجة بالمنع أو الإعطاء ؛ فإذا ما افترضنا جدلا : حاجة الكون إلى التزايد ؛ فهل فى مكنة مخلوق أن يتحكم فى هذا النقص بالزيادة ؟ !

والإجابة على هذا السؤال لا تقتضى سوى النفى المطلق !

وهنا لا يكون أمامنا سوى التنظيم بالمنع والنقصان ! وهو التحديد الذى تهربوا منه !

فإذا ما تمشينا معهم فى تحديدهم أو تنظيمهم ، وقلنا : هل نحدد أو ننظم ؛ وعندنا من الأولاد ما يكفينا ويرضينا . ولكننا قبل أن نحدد ؛ نريد ضماناً من إنسان قادر على تنفيذ ضمانه ! وهذا الضمان لا يعدو : حفظ ما وهبنا الله تعالى وارتضيناه وقنعنا به !

فدلونى أيها المحددون المنظمون على هذا الضامن ؛ ولن تجدوه ، بل ولن تتوهموه ! ولكنه القادر المتعال : هو الذى يحفظ ، وهو الذى يزيد ، وهو الذى ينقص ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ .

وفوق كل ذلك فإن السعى إلى تحديد النسل أو تنظيمه : ما هو إلا مظهر من مظاهر معاندة الخالق سبحانه وتعالى : التى أصبحت — فى العصر الحديث — ديدناً لمن يدعون العلم ؛ وما هم بعالمين !

وكثيراً ما تجمح النفس إلى عناد خالقها فيما يختاره ويقضيه ؛ وتكره كثيراً من أفعاله المحكمة المبرمة ! وتنفر مما رسمه لخليقته ، وشاءه لعباده !

فقد عاندوه فى الرزق : فأفقرهم . وعاندوه فى العلم : فجهلهم . وهاهم يعاندونه فى القلة : فكثرهم !

ولا أدل على ذلك من إحصائيات المواليد : فإنك لا تدخل أحد مستشفيات الولادة ؛ إلا وتجد الكثرة الغالبة من الوالدات قد ولدت توأمين أو ما يزيد !

وجاءت بذلك الأخبار تترى فى شتى البلاد التى قالت بالتحديد أو دعت إليه . حتى بلغ ما تلده بعض النساء فى المرة الواحدة : خمسة توائم !

وإليك نبأ من هذه الأنباء : فقد نشرت جريدة الأخبار فى عددها الصادر فى يوم ١٠ يناير عام ١٩٦٨ أن امرأة ولدت أربعة توائم ؛ رغم تناولها حبوب منع الحمل !

وجاء فى جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٩ يناير سنة ١٩٧٣ ما يلى : تحت عنوان :

تلد للمرة التاسعة رغم حبوب منع الحمل

وضعت سيدة استرالية ، فى الثلاثين من عمرها : مولودها التاسع ؛ رغم محاولاتها المستميتة لتحديد النسل .

وقد استخدمت فى محاولاتها سبعة عشر نوعاً مختلفاً من حبوب منع الحمل . كما أجرت جراحة للعقم .

فثبت من هذا : أن الله تعالى ﴿بالغ أمره﴾ وأنه جل شأنه جعل ﴿لكل شىء قدراً﴾ .

وهنا تذكرت قول الرؤف الرحيم ، ذى القلب السليم ؛ صلوات الله تعالى وسلامه عليه « ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة : إلا وهى كائنة » !

وقد ثبت أن حبوب منع الحمل هذه : صارت متلفة ؛ فما أجدرنا بالإيمان بالله والرجوع إليه ، والتسليم لما أراده بعباده . وقدره لهم !

هذا وقد أذاعت وكالات الأنباء رأى طبيب من كبار أطباء انجلترا فى حبوب منع الحمل وأضرارها البالغة . وأن فى إحدى المستشفيات بلندن ٢٧٥ سيدة مصابات بتجلط فى الشرايين ؛ نتيجة لتناولهن حبوب منع الحمل .

كما صرح طبيب مصرى ، من كبار أطباء الولادة « الدكتور إبراهيم مجدى » .

صرح بالأضرار المترتبة عن تعاطى حبوب منع الحمل ، وأنها تسببت فى التأثير على الغدة النخامية ، والغدة الدرقية ، والغدة فوق الكلية .

وهذه الغدد لها أثر فعال فى تنظيم نمو الطفل وتنظيم التحام العظام .

وأن تعاطى هذه الحبوب : مجازفة بحياة النساء !

وأن من الواجب الامتناع عن تعاطى حبوب منع الحمل بكافة أنواعها ؛ حتى لا تقع فى مضاعفاتها فى المستقبل .

وأن من أضرار هذه الحبوب التى ثبتت فعلا :

١ — أضرار بالغة فى الجهاز الهضمى ، وغثيان ، وعسر هضم ، وقىء .

٢ — اختلال فى وظيفة الطمث ، ونزف فى مدة الحيض ، وانقطاعه لمدة طويلة .

٣ — ظهور شعر حول الذقن !

٤ — تزيد نسبة الشحم فى الجسم ، وتسبب سمنة مفرطة .

٥ — اختلال فى تفاعل الأملاح فى الجسم ، مما يحدث عنه احتباس ورشح مائى فى الجسم .

٦ — تسبب فى تشويه الأطفال الذين يولدون[1] .

وهذا فى الواقع قل من كثر . فهل بعد ذلك نتادى ونلح بوجوب تعميم تعاطى هذه الحبوب الفتاكة : خشية حدوث انفجار سكانى ، تعقبه مجاعة ! ؟

والقول بما يقولونه هو إحدى الكبر ؛ إذ كيف نقحم أنفسنا فى أمور ليس لنا عليها سلطان ، وما لنا بها طاقة ، ولا يحيط بها علم . أليس الله معنا ، يسمعنا ويرانا . ويعلم سرنا ونجوانا ، ومتقلبنا ومثوانا ؟

أليس هو الذى يرزق الطير فى وكناتها ، والوحش فى فلواتها ؛ فتغدو خماصاً وتروح بطاناً ؟ !

أليس الله تعالى هو القائل ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾ وهو جل شأنه القائل ﴿ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ .

هل بعد هذا القول — الصادر عن مالك الخلق والتقدير ، والإبقاء ، والإفناء — يجوز لمخلوق حقير — لا يملك قوت يومه ، بل لا يملك من قطمير — هل يجوز لمخلوق عاجز أن يجابه مولاه الغنى القوى ؛ ويقول له : لقد أسأت التقدير ، وأخطأت التدبير ؛ فلم تعد الأقوات التى أخرجتها : كافية للناس التى خلقتها !

وهو تعالت قدرته القائل : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ .

وهل يجوز إذا قال أحد ملوك العصر : لقد دبرت لشعبى قوته ، وأمنته غائلة الجوع والعوز .

---

(١) من حديث صحفى نشرته الجرائد فى حينه .

هل يستطيع أن يقوم فى وجه أحد رعاياه : فيجابهه بالمخالفة : ويسفه رأيه ، ويطعن فى تنظيمه ؟

فإذا كان هذا لا يجوز ؛ مع تيقن خطأ الملك وفساد تدبيره ؛ فكيف يجوز أن نجابه بقولنا هـــذا الحكيم العليم ، القوى الغنى ، خالق المخلوقات ، ومخرج الأقوات ، ومبدع الكائنات ، ومدبر الأرض والسموات ؟!

ومن العجيب أنهم يقولون : إن العالم عرضة لانفجار سكانى عنيف . يجأرن بهذا القول أمم قد تقدمتنا فى الحضارة . ولكن هذه الأمم قالت ماقالت : كفراً ؛ لااحتياجاً . بدليل أن أغلب هذه الأمم تجود بفائض محصولاتها على الأمم المتخلفة ، وتلجأ فى كثير من الأحيان إلى إلقاء بعض محاصيلها فى البحار .

وأين الانفجار السكانى المزعوم ، وها هى أرض الله واسعة : لم يعمر المعمرون منها معشارها .

وكيف يجوز لنا أن نداري عجزنا وجهلنا : بهذه الحجة الواهنة الواهية !

وهل الانفجار السكانى المتوقع : سيكون فى غفلة من الله تعالى !

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ !

وهذه الأمم نفسها حين تقول بتحديد النسل : تحاول إيجاد نسل عن طريق أنابيب الاختبار ؛ زاعمين أنهم سيتحكمون فى هيئة الجنين وفى صفاته وأخلاقه ، بمعنى أنهم سيتفوقون بما يصنعونه عما صنعه الله !

وثالثة الأثافى ، وداهية الدواهى : أن يقوم وزير مسئول ؛ فينادى بتعقيم الرجال للحد من النسل !

والتعقيم هذا : هو بالخصاء أشبه . وهو رغم أنه تغيير لخلق الله : ملعون من يأتيه ، أو يأمر به ؛ بنص الحديث الشريف .

وهو بدعوته هذه : يتابع إحدى الدول المتأخرة : غير الإســـلامية ؛ وقد عقمت خمسة ملايين من شعبها ، وهى فى سبيل تعقيم عشرات الملايين من شعبها البائس ؛

الذى أهلكته الكوليرا والطواعين ! وهو لا يزال يرزح فى موجبات المرض والهلاك ؛ لعدم تقدم حاكميه !

وهذه النزعة : إن صح أن تفشو فى البلاد الغربية — التى تميزت بالإلحاد والمادية — فلا يجوز بحال أن تفشو وأن تشيع فى البلاد الإسلامية — التى تميزت بالإيمان والروحية —

وهل يجوز أن نؤمن بأن الله هو ﴿الخلاق﴾ ولا نؤمن بأنه تعالى هو ﴿الرزاق﴾ ؟

ويقول جل شأنه فى معرض الامتنان والإحسان ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ فبان لنا من ذلك : أن القلة ذلة . والكثرة عزة !

فكيف نستبدل العزة بالذلة ، والكثرة بالقلة ؟ !

ويقول الله تعالى ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾ فنقول : دعونا من الحفدة والبنين ؛ فلسنا لهم بمطيقين !

ويقول أيضاً ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾ فنقول : وأين هذه المعايش ؟ وأين هذا الرزق ؟

قال الله تعالى ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ﴾ فأتبع الخلق بالرزق !

وقال أيضاً ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ... نحن نرزقكم وإياهم ... كلوا واشربوا من رزق الله ... إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

فإذا ما استمعنا إلى هذه الآيات البينات ، قلنا بلسان الحال والمقال : أين الرزق ، وأين الرزاق ؟ لقد كسد الحال ، وكثر العيال !

فإذا ما استمع مؤمن إلى هذا الهراء ؛ الذى هو أشبه بالكفر ، بل هو والكفر سواء ! قال : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ لقد حق علينا الهوان ، وبؤنا بالخسران !

والقول الفصل فى هذا : ما أشار إليه الذكر الحكيم بقوله ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ؟

وأعقب ذلك بقوله ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ ؟

وأعقبه أيضاً بقوله : ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ ؟

كل هذا يقوله الخالق الرازق ، الحكيم العليم ؛ فما يزيدنا إلا كفراً وعناداً : من أين نرزق ؟ من أين نأكل ؟ من أين نطعم أبناءنا وحفدتنا ؟

وهذا نزغ من الشيطان ؛ نعوذ بالله تعالى منه ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ !

لقد تكفل الله بأرزاقنا ورزق أبنائنا وحفدتنا ودوابنا ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . . . وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾ .

ولله در الخليل بن أحمد حيث يقول :

إن الذى شق فمى ضامن   للرزق حتى يتوفانى

وقال آخر :

وما مجاهدة الإنسان موصلة   رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه !
قد وزع الله بين الناس رزقهم   لم يخلق الله من خلق يضيعه !

وهل يملك الإنسان رزق نفسه : إذا حدد النسل ، أو منع النسل منعاً باتاً ؟ ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وماذا يكون الحال ونحن فى عهد القنابل الذرية والهيدروجينية : التى تطيح إحداها بمئات الألوف من البشر ؟ بل ويزعمون أنها ستنهى العالم فى لحظة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ .

ماذا يكون حال الأمم التى حرمت التعدد ، وحددت النسل ؟

وها هى الأمم التى اكتوت بنار الحرب تشكو كثرة النساء ، وقلة الرجال والعيال .

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . . . إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

وما دعا إلى هذه النزعة : سوى الجحود والكنود ، وسوء الظن بالله تعالى ، وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت ! وحاشاها أن تغلق فى وجه مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر !

وقد جاء عن رسول الإسلام ؛ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ؛ حين سئل عن العزل : قال « إنه الوأد الخفى » .

وحين سأله بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ؛ وقد عزلوا مع بعض السبايا [1] : غضب غضباً شديداً ؛ وقال : « وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ؟ ! ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة : إلا هى كائنة » وفى رواية : « لا تفعلوا فإنما هو القدر » [2] .

هذا وقد وردت بعض أحاديث تؤيد جواز العزل ، وأن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه لم ينه عنه . وهى أحاديث يجب تأويلها : لمعارضتها لما قدمناه من الأحاديث الصحيحة ، وإذا لم تؤول : فيكون لها مقاصد أخرى سامية ؛ ليس من بينها تحديد النسل !

وكيف يكون فى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ما يدعو إلى تحديد النسل ؟ وهم حينذاك قلة ؛ تتوشهم الأعداء من كل جانب ! ؟

كيف يدعو إلى العزل من يقول بصريح القول ؛ فى شتى الأحاديث « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم » « تناكحوا تناسلوا تكثروا ؛ فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

كيف نرغب عن سنة الرسول — فى الكثرة وهى عزة — وندعو إلى القلة ؛ وهى ذلة ؟

وإذا كان مناط البحث : خشية الكثرة فى النسل للفاقة ؛ فإنه فوق ما قدمنا ونقدم من فساد ذلك الرأى ؛ فكم قد رأينا إنساناً لم يرزق من زينة الحياة الدنيا سوى ولد واحد ؛

---

(١) ولا يخفى أن السبايا : ليس لهن ما للزوجات الحرائر من الحقوق .
(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه : صفحة ٤٠ من جزء ١٠ طبعة المطبعة المصرية .

وهو — مع فيض رزقه ، وسعة عيشه — لم يستطع أن يتم تعليم هذا الولد الواحد ، أو يتم تثقيفه وتهذيبه !

وبعد ذلك يتركه عالة على المجتمع : جاهلا ، خاملا ، عاجزاً .

وكم قد رأينا رجلا — تحيط به الفاقة ، ويجتاحه الفقر المدقع — وقد وهبه الله تعالى من البنين والبنات عشرات ؛ فإذا بهم بمعونة من الله : زينة كل مجتمع ، وبهجة كل محفل : علماً ، وأدباً ، وفضلا ، ونبلا !

والذى قلناه : هو الواقع الثابت ، الذى يحس به كل من حدد ، ومن لم يحدد ، ومن قال بالتحديد ، أو لم يقل به .

هذا وقد أورد الغزالى — رضى الله تعالى عنه — فى كتابه الإحياء : ما فهم منه بعضهم جواز العزل ؛ وبالتالى جواز التحديد . وهو فهم خاطىء ؛ كما سترى :

قال الغزالى : ومن الآداب ألا يعزل : بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث ، وهو الرحم « فما من نسمة قدر الله كونها : إلا وهى كائنة » هكذا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليجامع أهله ؛ فيكتب له بجماعه : أجر ولد ذكر ؛ قاتل فى سبيل الله فقتل .

وأشار الغزالى إلى أن ترك النكاح أصلا ، أو ترك الجماع بعد النكاح ، أو ترك الإنزال بعد الإيلاج : ترك للأفضل ، ولو أنه لم يصل إلى حد التحريم . لأنه لم يبلغ بعد حد جناية الإجهاض والوأد ؛ لأنها جناية على موجود حاصل .

وأول مراتب الوجود : وقوع النطفة فى الرحم ، واختلاطها بماء المرأة ، واستعدادها لقبول الحياة .

وأن إفساد ذلك : جناية قطعاً ، فإذا صارت النطفة علقة ومضغة : كانت الجناية أفحش، فإذا نفخ فيها الروح ؛ واستوت الخلقة : ازدادت الجناية تفاحشاً !

وجميع ما تقدم : لايتم إلا بترتيب ، وتنظيم ، وتقدير إلهى ؛ يسير وفقاً لحاجة الكون الماسة إليه ؛ فليس لكائن من كان أن يقول : إن حاجة الكون قبل الآن كانت ماسة ، والآن غير ماسة ، بل يجب على الكل التسليم بأن الحكمة فيما تم ، والخير فيما كان !

وإذا لم يكن طلب التحديد مكروهاً من حيث إنه دفع لوجود الولد ؛ فلا شك أنه مكروه مرذول : للنية الباعثة عليه !

إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة ؛ تشوبها من كل جانب شوائب الشرك الخفى !

وكل ما قاله الغزالى فى هذا الباب لا يؤدى إلى ما ذهب إليه المفترون عليه .

بل قصر قوله على أن أسباب العزل خمسة :

١ — فى السرارى . ٢ — استبقاء جمال المرأة .

٣ — الخوف من كثرة الحرج ؛ بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب .

وعقب الغزالى على هذا السبب الأخير بقوله :

نعم إن الكمال والفضل : فى التوكل مع الثقة بضمان الله تعالى ؛ حيث قال ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ ولا جرم : فيه سقوط عن ذروة الكمال ، وترك الأفضل.

ولكن النظر فى العواقب ، وحفظ المال وادخاره — مع كونه مناقضاً للتوكل — لا نقول : إنه منهى عنه .

والغزالى بقوله هذا : يعترف اعترافاً صريحاً : بأن هذا العمل مناقض للتوكل .

ومتى كان العمل مناقضاً للتوكل : فهو حرام قطعاً !

قال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ أى كافيه .

فمن أعرض عن التوكل : فقد تخلى عن كفاية الله تعالى له !

وقال جل شأنه ﴿ إن الله يحب المتوكلين﴾ ومتى كان الله تعالى يحب المتوكلين ؛ فإنه يكره من عداهم .

ومن ترك التوكل : فقد فارق حب الله تعالى له !

وقال عز من قائل : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . . . إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ .

فظهر لنا أن عدم التوكل : قرين عدم الإيمان بالله !

وذكر الغزالى فى السبب الرابع : الخوف من الأولاد الإناث ؛ لما يعتقد فى تزويجهن من المعرة . وقد ذم الغزالى هذا السبب .

وقد ذكر فى السبب الخامس : امتناع المرأة لتعززها ، ومبالغتها فى النظافة ، والتحرز من الطلق والنفاس ، والرضاع .

وذم الغزالى ذلك . وقال : إنه كان من عادة نساء الخوارج . وأنها نية فاسدة تخالف السنة !

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من ترك النكاح مخافة العيال ؛ فليس منا (ثلاثاً) » .

« انتهى قول الغزالى »

ومن أعجب العجب : أن يتصدى بعض العلماء لهذه المسألة ، ويؤلفون فيها كتباً تحمل الخطأ المزرى ، والجهل المردى ! وينافحون فيها عن هذه الأفكار الفاسدة الكاسدة ، وهم بما يكتبون : لم يريدوا وجه الله ؛ بل هو ضرب من ضروب النفاق . عافانا الله بمنه عن ارتكابه ، أو الأخذ فى أسبابه !

وقد قلت فى التحديد أو التنظيم :

يقولون : تحديد : فقلنا خرافة	وكيف نحد الخير يأتى به الرب؟![1]
فقالوه : تنظيم . فقلنا : سفاهة	وكيف يكون البغض : مبعثه الحب؟![2]
فقالوا بأن الرب : قد شح رزقه !	فياويلكم : أين المطاعم والشرب؟!

(١) من نافلة القول : أن نقول : إن الكثرة خير ، والقلة شر ! فقد أوضحنا ذلك بهذا البحث بما لا يدع زيادة لمستزيد .

(٢) كما أن الحب : لا يبعث على البغض ؛ كذلك البغض : لا يبعث على الحب !

وأين عناقيــــد الكروم ؛ التى لها ... جمال ؟ وأين النخل ، والتين والقضب ؟! [١]
وأين جنان الزيت ؛ يشفى قلوبكم ؟ ... ويا ويلكم : أين الفواكه والأب [٢]
جنيتم على الدنيا ببــــاطل زعمكم ... فشــــح كما قلتم ، وزاد بنا الكرب !
فعودوا إلى المولى : يجــــود عليكم ... ويأتيكم الرمان ، والتمر ، والحب !
وتؤتيــــكم جناته : كل معجب ... من الرزق : قد جادت به الشمس والسحب !
فياويلكم : ماذا دهاكم ، وما الذى ... تريدون من شعب أحاط به الرعب !
تعادون رباً قادراً ، ومهيمناً ! ... لحربكم ســــلم ، وسلمكم حرب !
كفرتم برزق الله ؛ هل ترزقوننا ؟ ... إذا أمحلت أرض ، وإن قصرت سحب !
وهل تخلقون الزرع ، أو تنبتونه ... إذا ما تخلى عنــــكم الأكل والشرب !
وهل توقدون النار ، أو تصنعونها ... إذا ما خبت نار الكريم ؛ ولن تخبو !
فروحوا ؛ كما راح الدجى بظلامه ... فقــــربكم بعد ، وبعــــدكم قرب !
لقد قلتم قول اليهــــود : إلهنا ... فقير ؛ ونحن الأغنيا ، قبح الذنب ! [٣]
إذا قيــــل : هذى جنة الخلد فادخلوا ... أبيتم ؛ وإن قيل : الجحيم ؛ فلن تأبوا !

ومن أعجب العجب ، أن أجهزة الإعلام فى مصر : تذيع تباعاً وجوب تحديد النسل ؛ وقد ساقوا دليلا لذلك أن المعركة التى نحن فيها : تحتاج لهذا النظام !

فانظر معى وتعجب مما يقولون !

المعركة التى تحتاج إلى الرجال : فى حاجة إلى نقصان هؤلاء الرجال !

ولن أزيد على ذلك الجهل والحمق .

---

(١) القضب : جمع قضبة ؛ وهى الرطبة ؛ وهو كل ما اقتضب ــ اقتطع ــ فأكل طريا ، وهو أيضاً : ما يسقط من أعالى العيدان ؛ لتمام نضجه .

(٢) الأب : مرعى الدواب ؛ من أبه : إذا أمه ؛ أى قصده .

(٣) قال تعالى « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء » وذلك قول اليهود ؛ قاتلهم الله .

يقول المولى : الخالق ، البصير ، الخبير : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ﴾ ونحن نقول : واذكروا إذ كنتم كثيراً فقللكم .

أغيثونا ياذوى العقول والألباب ؛ فقد جانب القوم الصواب ، وأبوا الاستماع إلى نصح البارىء الوهاب !

فيا بؤس من ينحرف عن نصح ربه ، ويتبع نصح شيطانه !

هذا شأننا فى زمن الحرب والقتال ، والتعرض لنقصان الرجال !

أما عدونا العنيد اللدود : فيتسول الرجال من شتى الممالك والأقطار ؛ ليستطيع الوقوف أمام هذا الجيش الجرار ؛ الذى وهبنا إياه المولى سبحانه : نعمة ؛ فحسبناه نقمة ! ونحاول جاهدين صرفها عنا ، وحرماننا منها !

ومن ضمن ما قالوه فى هذه الحملة التليفزيونية : قول الله تعالى ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ لذا يلزمنا أن نحدد النسل ونقدر الأبناء أيضاً .

وكأنهم فهموا من تقدير المولى سبحانه : أنه أخطأ التقدير ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله !

هذا : ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ ومن المعلوم أن الهبة لا تكون إلا فى الخير المحض ، فلا يجوز أن يقال : وهبه الله تعالى داهية ، أو أنعم عليه برزية ! بل كل ما ساقه الله تعالى فى كتابه الكريم بمعنى الهبة : هو خير محض ، وسعادة بينة : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق ... ووهبنا له إسحق ويعقوب ... ووهبنا له من رحمتنا ... ووهبنا له يحيى ... لأهب لك غلاماً زكياً ... رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ... ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ... وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

أما الجعل : فقد يكون خيراً ، وقد يكون شراً ؛ فمثال الخير قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ... وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ... وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ... وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ﴾ .

ومثال الشر قوله جل شأنه ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة . . . فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ يقتضى الشر المحض ؛ إذ لا يوجد إنسان يستكمل سداده وعقله : يتمنى أن يكون عقيما مقطوع العقب ! اللهم إلا إن كان من أنصار التحديد .

فكيف نحاول جاهدين — بإرادتنا المحضة — أن نمنع هبة الله تعالى لعباده ، أو أن نوقفها ونحد من نمائها ؛ وقد أحاطها المولى الكريم الحكيم بسياج منيع يحد من نقصها أو فنائها : قال جل من خالق ، وعز من رازق : ﴿أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ وقد ثبت علمياً : أن عدد الجراثيم المنوية — التى يتكون منها الجنين — يبلغ مئات الملايين ؛ فى حين أن الجنين يتولد من واحدة ليس غير من هذه الجراثيم !

فانظر يا رعاك الله وهداك ، إلى حكمة مولاك وتدبيره فى إيجاد الكائنات !

ونحن الآن فى عصر العلم — الذى يزعمون أنه أزهى العصور — نريد بجهلنا وحمقنا أن نهدم ما بناه الله تعالى من تدبير الكائنات والمخلوقات ؛ وهيهات هيهات ، أن نحارب جبار الأرض والسموات !

فيا أيها الناس : اتقوا ربكم الذى خلقكم ، وتكفل بأرزاقكم ، ولا تقحموا أنفسكم فيما ليس لكم به علم ، وادعوا الله تعالى : ألا يكل أحدكم إلى نفسه فيهلك ، واذكروه كما هداكم ورزقكم من الطيبات ، وفضلكم على العالمين !

ولا تفيضوا فى هذا الحديث ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ !

وتذكروا قول الحكيم العليم ، الرؤف الرحيم ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ !

ونريد أن نهمس فى آذان من يقولون بالتحديد : أن ما يبعثه الله تعالى من نسل ؛ لم يكن مستهلكا فحسب ؛ بل هو منتج قبل أن يكون مستهلكا !

ولكن قلة الكياسة ، وسوء السياسة : حدت بكم إلى الدعوة لما تدعون إليه !

ماذا يحدث فى الدول التى يكثر نسلها

ومن العجيب أننا نصرخ ونستصرخ ، وننادى بالويل والثبور ، وعظائم الامور : لأن تعدادنا — والحمد لله — يزيد مع الزمن ، ونزعم أنه الانفجار السكانى المتوقع ، وأن هذا الانفجار : سيقضى على البقية الباقية من هنائنا وراحتنا .

نقول ذلك : ولا نقوم بأى عمل إيجابى : عدا الصراخ والضجيج ، وكتابة المقالات الفاسدة ، والإذاعات الكاسدة ، وتأليف الكتب فى وجوب تحديد النسل .

الأمة الصينية

ونرى فيما نرى من الأمم — التى أكرمها الله تعالى بزيادة النسل — أمة الصين مثلا : وقد زاد تعدادها عن ألف مليون نسمة ، وقد كانت من بضع سنين ستماية مليون فحسب .

فماذا فعلت الصين لمقابلة هذه الزيادة ، ولمواجهة ما يسمونه بالانفجار السكانى ؟

لقد شمر القائمون بالأمر فيها عن سواعدهم ، وصنعوا فى بضع شهور : ما كان لا يتم صنعه إلا فى بضع سنين .

وقد رأينا رأى العين زعماء الصين وكبراءها يمسكون بالفؤس ، ويحفرون فى الأرض مع صغار العمال والفعلة .

هذا فى الصين . أما فى مصر الحبيبة : فنعمل فى بضع سنين : ما كان يجب أن يعمل فى بضع شهور .

وجميع ذلك مشاهد فى الصين : كما شوهد عكسه فى مصر .

وعمدت الصين بعد ذلك إلى التكنولوجيا الزراعية فإذا بالفاصوليا : وقد بلغ طول الواحدة منها متران . والبطاطا يبلغ وزن الواحدة منها ستة كيلوات ، وكذلك الباذنجان .

وقس على ذلك كل الخضر والفاكهة .

ولنسائل أنفسنا : ماذا عملنا فى هذا السبيل ؟

لقد ازدادت زراعاتنا سوءاً فوق سـوء ، وصناعاتنا تلفاً فوق تلف ، وبواراً فوق بوار !

هذا عدا ما انتابنا من فساد فى الخلق : كذب ، وفجور ، وظلم ، وسوء قول وفعل .

هذا والصين كان يحتلها إلى عهد قريب أربع دول كبيرة : أشاعت فيها الفساد ، والدعارة ، وأفتك المخدرات والسموم ، وكانت تعج بالجرائم والمجرمين : فأصبحت الآن — وفيها محاكم وقضاة — لا تفتح المحكمة ، وتعقد جلستها سوى مرتين أو ثلاث مرات طوال العام : وذلك لانعدام الإجرام الذى كان متفشياً .

أما مصرنا الحبيبة ، مصرنا العزيزة : فقد ازدادت فيها كل الجرائم : سرقة ، نشل ، قتل ، هتك عرض ، ولن أطيل عليك أيها القارىء الكريم بذكر تعداد هذه الجرائم ، وزيادتها عاماً بعد عام : فالأمر من الوضوح بما لا يحتاج معه إلى دليل .

وجوب إقامة الحدود

وكم كتبنا وقلنا : إن العقوبات الوضعية لم تعد رادعة للبشر .

وأن الحدود التى وضعها المولى سبحانه وتعالى : هى الكفيلة بردع من خلق وتأديب !

إذ لا يعقل أن السارق ، والزانى ، والمجرم : أياً كان إجرامه : تكون عقوبته تلك النزهة التى يقضيها فى السجن : آكلا ، شارباً ، لاعباً .

يأكل فى سجنه : مالا يستطيع أكله فى بيته ، ويعالج — إذا مرض — علاجاً لا يقوى على مثله طليقاً .

فماذا يخشى المجرم بعد ذلك ؟

وجميع ما قدمناه قد حدث فى الصين بصدق عزيمة القائمين بالأمر فيهم .

فليت القائمين بالأمر فينا — وقد اشتهر رئيسهم بالإرادة الصلبة ، ومضى العزيمة — ليتهم يقومون بما قامت به الصين : حزماً وإرادة .

هـذا وقد أصبحت الصين — بفضـل زيادة تعـدادها — ترهب أشرس الدول وأطغاها (روسيا) التى أخافت العـالم أجمع : شرقيه وغربيه .

وسنختم هذا المبحث بما بدأناه به : من قول البارىء المصور ، الحكيم العليم : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ وقوله جل شأنه ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ .

فإذا كان المولى جل شأنه يعلم — علم إنشاء وإرادة — ما تحمله كل أنثى فى أرحامها ، وما تنقصه تلك الأرحام مما تحمله : بسقوط الأجنة ، وما تزيده : من تعدد الأجنة فى الرحم الواحد ؛ بولادة واحدة « التوائم » .

وجميع ذلك : مقدر بمقدار معلوم لديه ؛ تقتضيه الضرورة ؛ وتستلزمه الحاجة والمصلحة وعلمه جل شأنه — كما لا يخفى — سابق لأمره !

إذا كان ذلك كذلك : فمن أعلم من الله ؟ ومن أخبر منه بحاجة مخلوقاته وكائناته ؟ !

والقول بتحديد النسل : هو منتهى سوء الظن بالله ، واليأس من قدرته وعدالته !

قرار المؤتمر الإســــلامى

هذا وقد كفانا مؤتمر « مجمع البحوث الإسلامية » المنعقد فى القاهرة عام ١٩٦٥ والذى جمع أكثر من مائتى عالم من مختلف الدول ، والذين يمثلون شتى المذاهب والطوائف الإسلامية : كفانا مؤنة الدفاع عن هذه العقائد « تعدد الزواج . حرية الطلاق . تحديد النسل » التى تعتبر جميعها — كما بينا — من صميم الدين ، ومن صلب العقيدة الإسلامية ! فضلا عما ينجم ؛ من تضييقها وتحديدها : من أضرار اجتماعية ! فقد كفانا مؤنة الدفاع عنها ؛ وقد دافع الله تعالى عنها فى محكم كتابه ، ودافع عن المدافعين عنها ؛ لاتصافهم بالإيمان : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ .

وقد كان قرار المؤتمر كافياً شافياً ، لم يدع كلمة لقائل ، أو مغمزاً لغامز !

وها كم نص هذا القرار السليم ، الحكيم ؛ بعنوان « شئون الأسرة والشباب » :

أولا — بشأن تعدد الزوجات :

يقرر المؤتمر أن « تعدد الزوجات » مباح بصريح نصوص القرآن الكريم ؛ بالقيود الواردة فيه ، وأن ممارسة هذا الحق : متروكة إلى تقدير الزوج ، ولا يحتاج فى ذلك إلى إذن القاضي .

ثانياً — بشأن الطلاق :

يقرر المؤتمر أن « الطلاق » مباح فى حدود ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، وأن طلاق الزوج يقع دون حاجة إلى إذن القاضى .

ثالثاً — بشأن تحديد النسل :

يقرر المؤتمر ما يلى :

١ — أن الإسلام رغب فى زيادة النسل وتكثيره ؛ لأن كثرة النسل : تقوى الأمة الإسلامية : اجتماعياً ، واقتصادياً ، وحربياً ، وتزيدها عزة ومنعة !

٢ — إذا كانت هناك ضرورة شخصية تحتم تنظيم النسل : فللزوجين أن يتصرفا طبقاً لما تقتضيه الضرورة ؛ وتقدير هذه الضرورة متروك لضمير الفرد ودينه [1] .

٣ — لا يصح شرعاً وضع قوانين تجبر الناس على تحديد النسل بأى وجه من الوجوه !

٤ — أن الإجهاض بقصد تحديد النسل ، أو استعمال الوسائل التى تؤدى إلى العقم لهذا الغرض : أمر لا تجوز ممارسته شرعاً للزوجين ، أو لغيرهما [2] .

ويوصى المؤتمر بتوعية المواطنين ، وتقديم المعونة لهم فى كل ما سبق تقريره بصدد تنظيم النسل .

والذى نريد أن نسجله فى هذه الكلمة : أن الفضل كل الفضل للسادة العلماء القادمين من شتى الأقطار الإسلامية ؛ فقد راعوا دينهم وربهم ، ولم يخرجوا فى آرائهم عما حددته الملة السمحاء ؛ فاستوجبوا رضا أمتهم — خير الأمم — ورضا ربهم : مالك خيرى الدنيا والآخرة !

أما من نافق فى رأيه ، أو اتبع هوى فى نفسه : فلا يسعنى إلا ما وسع عيسى ابن مريم — عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام — حيث قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

---

(١) وقد أريد بالضرورة : المرض الذى يضر الحامل فى بدنها .

(٢) أريد بالوسائل التى تؤدى إلى العقم : ما يصنعونه من حبوب طبية مانعة للحمل ؛ وقد ثبت ضررها وفتكها بأناس كثيرين كما قدمنا .

التبرّج والسّفور

أما تبرج المرأة وسفورها : فهو الداء العياء ، والمصيبة العمياء :

يقول المولى العليم الرحيم ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين[1] عليهن من جلابيبهن[2] ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[3] .

وهو أمر صريح لسائر نساء المؤمنين وبناتهم بإرخاء الجلباب ليستر سائر الجسم حتى لا تعرف المرأة : من هى ؟ وما شكلها ؟ وما هيئتها ؟ وليفرق ذلك الستر بينها وبين الإماء ، وليبتعد عن إذايتها المرتاب ، ومن فى قلبه مرض !

والمراد أيضاً فى هذه الآية : إدناء الجلباب والخمار ؛ وهو من باب ذكر البعض وإرادة الكل ؛ وإلا فالجلباب بغير خمار لا يمنع من التعرف بالمرأة ؛ إذ أن وجهها ينم عليها : يؤيد هذا المعنى قوله عز من قائل ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾[4] .

ويقول الله تعالى أيضاً ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾[5] وكيف يتوفر غض البصر ، وقد انتشرت النساء فى الطرقات والمنتديات ؛ كاسيات عاريات ؛ لا يحجبهن عن الأنظار سوى غلالة من هواء ؛ تزيد فى فتنتهن ، والإغراء بهن ! وكما أن تحريم الخمر : لا يبيح صنعها ، فكذلك تحريم النظر لا يجيز الحث عليه ، والتشويق إليه . وكيف يغض البصر غاض ، وقد امتلأت الطرق والحوانيت بالكاشفات عن النحور ، والثدى والصدور ؟ اللهم إلا إذا أغمض عينيه ، وأسلم نفسه وروحه للمقادير ؛ فتتلقفه الأحداث ، ويحيط به

(١) « يدنين » أى يرخين . يقال : أدنيت الستر : إذا أرخيته .
(٢) الجلباب : ثوب يستر جميع البدن ، وقيل هو القناع .
(٣) آية ٥٩ من سورة الأحزاب .
(٤) آية ٣١ من سورة النور . و « الخمار » غطاء الرأس . و « الجيب » فتحة الثوب مما يلى العنق .
(٥) آية ٣٠ من سورة النور .

الموت وأسبابه من كل جانب ! وهذا أمر يخرج عن حد التكليف المعقول المقبول ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾.

وإثم ذلك لا يقع على هؤلاء السافرات المتبرجات وحدهن ؛ وإنما إثمه واقع على أشباه الرجال الذين يكفلونهن . ويدبرون هذه الفتنة وهذا الفجور !

وليس معنى هذا أنا نبيح للرجال النظر للأجنبيات . ما دمن سافرات ؛ بل إن غض البصر من ألزم اللوازم ، وأفرض الفرائض ؛ بل هو فى مقدمة الخلال الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ؛ وكيف يسلم الإنسان الكامل نفسه للشيطان ، ويدع بصره يرديه فى العصيان ؟ وما أحسن قول الشاعر :

لواحظنا تجنى ؛ ولا علم عندها وأنفسنا مأخـــوذة بالجرائر[1]
ولم أرَ أغبى من نفوس عفائف تصدق أخبـار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حرّاس قلبه أذنّ على أحشائه بالفواقر[2]

ولا عبرة بمـا قاله لفيف من الشعراء المـاجنين ؛ الذين لا يعبأون بحلال ، أو حرام . بل يسيرون وفق هواهم : مخالفين بذلك مولاهم !

فمن ذلك قول بعضهم :

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لى فيه : إلا لذة النظر !

وقول الآخر :

أمتع فى روض المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنـال المحرما

وأى إثم أكبر من اتباع الحسن ، والتلذذ بالنظر ؟ وقد نهى ربك عن النظر أصلا !

---

(١) الجرائر : جمع جريرة ؛ وهى الذنب والجناية .
(٢) الفواقر : جمع فاقرة ؛ وهى الداهية العظيمة قال تعالى « ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » أي تأكدت بأن تنزل بها داهية .

وأى محرم الخش من إمتاع ناظريه ، فى روض المحاسن ؛ التى حرمها الله تعالى عليه !

ومن المعلوم أن النظر : بريد الزنا !

ومثال هؤلاء — الذين أحلوا ما حرم الله — كمثال من يسرق الفاكهة من بستان غيره ؛ ويقول : ما ألذها وما أحلاها ! وما أبهى منظرها وطعمها ؟ (١)

وكأنهم لا يرون حراماً : دون الزنا ؛ لأنه فى نظرهم هو العمل المادى المؤاخذ عليه !

فى حين أن الله تعالى نهى عن النظر : نهياً صريحاً فصيحاً : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ .

وقال أحد الحكماء : من طاوع طرفه : تابع حتفه !

وقيل : إن الشافعى رضى الله تعالى عنه — وقد كان يلقى دروساً على طلابه بالمسجد الحرام — أتاه شاب فأعطاه ورقة ؛ فقرأها الشافعى وكتب عليها رداً لما جاء بها . وانصرف الفتى ؛ فقال بعض الطلبة : لا بد أنها فتوى . نستفيد بالاطلاع عليها . فأسرع بعضهم وراءه ، وقال له : بالله عليك أرنا ما أفتاك به الإمام .

فأراهم ورقة مكتوب فيها :

سل المفتى المكى : هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

وقد كتب الشافعى بخطه — على الورقة — إجابة لهذا السؤال :

أقول : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح !

فعجبوا من ذلك أشد العجب ؛ وحق لهم أن يعجبوا :

كيف يبيح الشافعى ذلك ؟ وهو من هو : علما وفقها ، وديناً وتقى !

---

(١) وجه المقابلة : أن السرقة حرام ، والنظر حرام أيضاً ، والسرقة اعتداء على ملك الغير . والنظر اعتداء على ملك الغير أيضاً ؛ بل اعتداء على حرمات الله .

فرجعوا للشافعي رضى الله تعالى عنه متسائلين :

لقد رأيناك يا سيدى منذ قليل تكتب فتوى لسائل ؛ فما هى ؟

قال : سألنى هل يجوز له تقبيل امرأته وضمها فى الصيام ! فأجبته بالإيجاب .

فقالوا له : ولكنه لم يصرح لك بذلك .

فقال : قد فهمت سؤاله ، وأجبته عليه .

فعادوا إلى الفتى ، فسألوه : ماذا كان يقصد من سؤاله ؟

فقال : سألت الإمام عن جواز تقبيل امرأتى وضمها فى الصيام ؛ فأجابنى .

فازداد عجبهم لمزيد فهم الشافعي ، وغزير فضله ونباهته !

لكن البغاة الطغاة : شوهوا جمال هذه القصة وجلالها ، وما احتوت عليه من فقه ، وكمال ، وأدب ؛ فرووا البيتين :

سل المفتى المكى : هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟
فقال : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح ؟

فى حين أنهم بذلك قد حرفوا المعنى والمبنى : وأساءوا للدين والأخلاق !

هذا وقد حد الله تعالى حدوداً يجب على المؤمنات ألا يتجاوزنها ؛ فقال عز وجل ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن : أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ [1] .

---

(١) آية ٣١ من سورة النور .

وهذه الأصناف التى أبيح للمرأة عدم إخفاء زينتها عليهم ؛ لا يصح تجاوزهم إلى غيرهم ؛ فكيف يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتعدى حدوده ، وتنتهك محارمه ، وتبدى زينتها ، وما وراء زينتها لرجال حرم الله تعالى عليهم النظر إليها ! ؟

هذا وقد أخذ كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى تأويل هذه الآيات مأخذ الشدة — لعلمهم أن النساء يتغالين فيما يسمح لهن به ، ويتجاوزن الحدود المرسومة لهن — فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : تستتر المرأة حتى لا يظهر منها سوى عين واحدة تبصر بها . وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : تغطى نصف وجهها .

وقد ذهبوا إلى وجوب ستر الوجه والكفين أيضاً ، وأن إبداءهما رخصة عند الخطبة فحسب .

ودليلهم على هذا قول الحكيم العليم ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ .

ولا أدل على التعرف على الإنسان من وجهه ؛ فوجب ستر وجه المرأة تطبيقاً لهذه الآية الكريمة .

ودخل نسوة على أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها ؛ وعليهن ثياب رقاق [1] فقالت عائشة : « إن كنتن مؤمنات : فليس هذا بلباس المؤمنات ! وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعن به » .

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فى وصف ما نراه الآن : « نساء كاسيات عاريات [2] ، مائلات مميلات [3] ، رؤوسهن مثل أسنمة البخت [4] ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » !

---

(١) أين تلك الثياب الرقاق مما يلبسه نساء اليوم من ثياب لا تحجب ما تحتها ؛ حتى إن المرأة لتبدو كأنها عريانة ؛ لا يحجبها حاجب ، ولا يسترها ساتر !

(٢) أى مكسوات اسماً . وعرايا فعلا . أو المقصود : عرايا من الإيمان .

(٣) أى يتمايلن فى مشيتهن ، ويملن إليهن من فى قلبه مرض من الرجال .

(٤) أسنمة : جمع سنام . والبخت : نوع من الإبل .

وهل بعد نفي الإيمان ، والحرمان من الجنان ؛ يقوم إنسان فيدعو لهذا السفور ، بل لهذا الفجور ! ؟

وقد قام أناس — غفر الله تعالى لهم — بالدعوة إلى السفور والحض عليه ، وذم الحجاب ؛ الذي مدحه الله تعالى ورسوله وأمرا به ؛ وقد قال قائلهم :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشق به المسلمات[1]

وقد جعلت هذا البيت مطلعاً لقصيدة قلتها من عشرات السنين — قبل أن يستفحل الأمر ، ويجل الخطب — وقد نسيت أكثرها ؛ ولا بأس من تدوين ما تذكرته منها ، عسى أن يتعظ به متعظ ، أو يستفيد به مستفيد :

أخر المسلمين عن أمم الأر ض حجاب تشق به المسلمات[2]
بئس ما يدعى فلاسفة العصـر من أن السفور فيه الحياة
وهو حق إذ أن أسلافنا الأعـراب من فرط من يحبون ماتوا[3]
يا خليلي حدث عن الشرق قدماً حين كانت تعظم المعجزات
حين كان القرآن يرجى ويخشى والقوانين : آيه البينات
حين كان الحديث يتلى ولا يرو يه إلا ذوو العقول الثقات

* * *

(١) من قول شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي .

(٢) صدرت بهذا البيت قصيدتي لأرد على هذا الرأي الفاسد الذي يتعارض مع صريح القرآن الكريم ؛ فما أخر المسلمين سوى السفور ، الذي أفسد الدين وسود الصدور ، أدركنا الله تعالى بلطفه ! وهذه الأبيات من قصيدة طويلة . قلتها في صباي . وما تذكرت منها سوى ما أوردته .

(٣) تهكم بهذا الرأي الفاسد ، والقول المذموم ؛ وإشارة إلى من مات من أعفاء العرب حزناً وجوى على عدم نيل من أحب . هذا في حين أن السفور الممقوت قد خلط الحابل بالنابل ، وجعل الحبيب متمكناً من حبيبته ، والعاشق مالكاً لعشيقته ؛ فانقشع بذلك الأسى والجوى ، وحل مكانهما القرب والنجوى ، فعم بذلك الشر والبلوى ، واستوجبوا الحرمان والنيران ، وغضب الرحمن الديان ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله !

إننا فى الزمان نلفى[1] أناساً ... فى التوضى علومهم قاصرات[2]
وهموا بعد يدعون علوماً ... أنكرتها عصورنا الخاليات[3]
ليت شعرى ماذا يريدون منا ... وصنوف الأذى بنا محدقات

* * *

بنت مصر هاتى سفورك واغشى ... كل ناد ولتمل منك الجهات[4]
عرفى نفسك الغداة وطوفى ... لا تفتك الأسواق والحانات[5]
ثم أمى مجالس القوم وادعيهم إلى حيث لا تمل الدعاة
علنا بالسفور نبنى حصوناً ... شامخات بها ترد العداة
وعسانا نرى البرايا سجوداً ... لابن مصر وقد عداه السبات[6]
ولعمرى لقد بكى الدين حزناً ... حين قال الخطيب ياسيدات[7]

وحقاً إن الدين ليبكى حزناً حين تختلط الفتيات بالفتيان ، ولا تعرف الحرائر من القيان[8] ، وتكشف المرأة — للأجانب عنها والذين ليسوا بمحرم لها — عن جسمها ومفاتنها بغير خجل ولا حياء ولا مروءة ! فلينظر ذلك وليعتبر به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد !

---

(١) نلفى : نجد .
(٢) أى لا يتقنون الوضوء ؛ وهو أبسط الأشياء فى الشريعة والفقه ، أو لا يقومون به أصلا لتركهم الصلاة ، وهذا شأن الكثيرين ممن دعوا إلى السفور .
(٣) وذلك بما يزعمونه من أن السفور لا يتنافى مع الدين ، على ما فيه من تبرج وزينة يأباها الدين القويم ، والخلق الكريم !
(٤) هو أمر قصد به الاستهزاء والتهكم .
(٥) وقد تغالت النساء فى زماننا هذا حتى أصبحن لا يتورعن عن غشيان الأسواق والحانات ، بل والمراقص أيضاً ؛ بغير وازع من دين ، أو رادع من خلق !
(٦) عداه السبات : تركه النوم والخمول .
(٧) أى عند ما غشيت النساء المحافل والمنتديات ، وقال الخطباء : سيداتى سادتى .
(٨) القيان : جمع قينة ، وهى الأمة البيضاء . وقد غلب على المغنيات والراقصات المتبذلات .

وإن دعاة تحرير المرأة : لم يدعوا إليه إلا لعلمهم أنها لا تفهم لتحررها معنى سوى الانطلاق على سجيتها فى الطرقات والمحافل العامة : شبه عارية تزرع الفتنة فى قلوب الرجال. أو لتعمل مضيفة تسلى الراكبين باللفتة الملفتة ، والبسمة المطغية . أو موظفة تندس بين صفوف الموظفين ؛ تنوشها العيون الزائغة ؛ التى تحملق فى جوع ونهم إلى وجهها الذى جمله الشيطان ، وقدها المياس الذى يذكى فى نفوسهم عوامل الشر والجريمة !

وهى فى كل ذلك تزاحم الرجال فى المركبات العامة ، والمجالس ، والطرقات : تزاحمهم بالصدر والعجز ؛ وهى غير مبالية بما تفعله تلك المزاحمة من رواج لأسواق الشيطان !

فإن تم تعلمها ، وحسن إدراكها وفهمها ، ووقفت بينهم خطيبة : فإنما تقف لتستعرض مفاتن جسمها ؛ أكثر مما تستعرض مواهب عقلها ، ولتستدر الإعجاب بجمالها ؛ أكثر مما تستدره برأيها وفكرها .

وخير عندها ألف مرة أن يقال لها : كم أنت جميلة فاتنة ؛ من أن يقال لها : كم أنت ذكية فاهمة !

فإن شذت واحدة منهن — لكرم أصلها وطيب عنصرها — فاحتفظت لنفسها بدينها وكرامتها ، ولزوجها بجمالها ورشاقتها ، ولولدها بحبها وحنانها : حبست أسيرة فى المنزل ، لا تمد يدها لخدمة المجتمع ، وقال شاعرهم :

أخر المسلمين عن أمم الأر ... ض حجاب تشقى به المسلمات

هذا فى حين أن المرأة المسلمة قد استطاعت فى شتى العصور : أن تؤدى أجل الخدمات لأمتها ومجتمعها ، دون أن تغمز بعين ، أو تميس بقد ، أو تكشف عن صدر أو نحر ؛ فتدخل النار بما فعلت ، وتدخل معها من شغل بها من ضعاف الدين والعزم !

والمرأة المسلمة حقاً واجباتها كثر : فمن واجباتها ألا يقعدها ظلام الجهل فى مكانها ؛ بل عليها أن تسعى إلى العلم النافع ؛ فإذا ما تعلمت لا يطغى بها الغرور العلمى عن مكانها الذى أعده الله تعالى لها ؛ إذ أنها عماد الأسرة فى التربية والتوجيه ، وهى عماد الأمة فى النصح لله تعالى ولرسوله !

وهى أيضاً ظهيرة الرجل فى الكفاح من أجل الدين والوطن : ثابتة فى الصف الثانى ؛ لتكون دائماً ردءاً للرجل ، ومرجعاً له : إن استشارها نصحته ، وإن رجع إليها من عنت العمل ومشاق الكفاح : غمرته بالحب والحنان ، ووطأت له كنف المنزل ؛ فوجد فيه الهدوء لنفسه ، والراحة لبدنه !

وهذا هو الإطار العام الذى يجب أن تبدو فيه المرأة المسلمة ؛ فإن زادت على ذلك : فقد أحاط بدينها الغموض ، وتلقفتها الشكوك والريب ، ولاكتها الألسن والأعين !

وما من شك أن هناك فلتات فى التاريخ لا يقام لها وزن ؛ لأنها تبلغ حد الندرة التى لا حكم لها .

ولم يغض من قدر أم المؤمنين عائشة رضوان الله تعالى عليها أنها لم تكن سافرة ؛ فمع الحجاب الشديد الذى كان يلفها — من رأسها إلى قدميها — فقد كانت من أعلم الناس ، وأفقههم . وعنها أخذ المسلمون نصف دينهم !

وقد كان من فضل النساء فى العصر الأول : أن يلجأ إليها أفاضل العلماء . ويقولوا : تعالوا بنا لستشير وقاية ؛ فعصابتها خير من عمائمنا [١] !

وانظر إلى وصية إحداهن لابنتها عند ما زفت إلى زوجها : لا يأكل خير ما فى بيتك غير زوجك ، ولا تكشفى عن رأسك فى بيت غيرك : ولو كان صاحبه فى العراق !

فما أحلى هذا الخلق ، وما أبدع هذا النصح !

هذا وقد بلغت حرية كثير من الغربيين شأواً بعيداً ، متحررين من سائر قيود الأخلاق والفضيلة ، ضاربين بالكرامات والأعراض عرض الحائط ؛ غاضين

---

(١) وقاية : امرأة عالمة فاضلة ، كانت بإحدى مدن ليبيا ، وكان أفاضل القوم يتبركون برأيها ، ويستمعون لقولها .

البصر عن كل ما يجد من الملذات ، أو يضيق أفق الإباحية المطلقة ، والتمتع الجنسي الخالص من القيود !

فقد ضبط أحد الأزواج — في منزل الزوجية — زوجته عارية كيوم ولدتها أمها ، بصحبة رجل أجنبي عنها عرياناً أيضاً كيوم ولدته أمه : فرفع أمره للقضاء طالباً الطلاق من زوجته البغي التي استهانت بكرامته وكرامة منزل الزوجية المقدس ! غير أن القضاء الإنجليزي في إحدى محاكم لندن لم يرقه تصرف ذلك الزوج الرجعي الذي لا يتمشى مع التقدم الغربي والرقي الاجتماعي ؛ فقضى برفض دعواه : مبرراً هذه الفعلة بأن الزوج يجب عليه أن يقدر الظروف والتقاليد [1] !

وقد ضبط أحد الشبان الهنود — وقت إقامته بباريس — رجلا يجلس مع امرأة في حالة مريبة واضحة الفجور في الطريق العام ؛ فلم يجد بداً من الاستعانة بجندي البوليس ؛ الذي قبض على الشاب الهندي المبلغ بتهمة الإخلال بالحرية الشخصية !

فرحى مرحى لهذه الحريات ؛ التي تقوم على أشلاء الفضيلة !

وهكذا كلما ازددنا تنكراً لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف : ازددنا بعداً عن الأخلاق والمروءة والكرامة والعفة ؛ بل خرجنا من عداد بني الإنسان ، إلى عداد الحيوان ! وقد نرى في بني الإنسان من يأتي عملا ينزه الحيوان نفسه عن إتيانه ! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

هذا وقد أصبحنا في زمن ؛ فشا فيه الانحلال والاضمحلال : فترى الشاب والفتاة ؛ فلا تعلم من منهما الشاب ، ومن منهما الفتاة !؟

---

(١) هذا الخبر منشور بجريدة أخبار اليوم ص ٢ عدد ١٠٨ الصادر في ٣٠ يوليه سنة ١٩٥٦ .

شباب مخنث : لا يعبأ إلا بزينته ، وتصفيف شعره ، وتحزبق ملبسه [١] ، وقد قلت في ذلك من قصيدة طويلة :

كيف ينجو النؤوم والشر صاح ... يتصدى بسائر الطارقات
فتيات : يلحن كالبدر حسناً ... بقلوب قددن من صخرات
ورجال : تسير تيهاً وعجباً ... كنساء ؛ يخطرن كالفاجرات
لا تفرق بين الرجال وبين النسوة : صوتاً ، وملبساً ، وخطاة
يتثنى الفتيان في المشي كالأفعى ، وتمشي الغادات كالعاريات
إيه يا أيها الشباب : أترضوا ... أن تكونوا في الدين كالعاهرات ؟
ما رأينا والله فيمن رأينا ... مثل أخلاقكم بهذى الصفات
عهد لوط من بعد نوح تولى [٢] ... وأتانا النبي بالمعجزات
أبدل البغاة الطغاة ؛ فصاروا ... بقلوب تفيض بالرحمات
يرحمون الضعيف فيهم ، ويلقوا ... كل عات بقسوة وثبات
فتحوا الفرس : فتح قرم عنيد ... وسقوا الروم فرقة وشتات
أغمدوا السيف في صدور عداهم ... لم يلاقوا الحروب بالكلمات
سنة الله : أن تكونوا رجالا ... وتكونوا من صادقي العزمات
أين أنتم من إخوة سبقوكم ... لصفوف الجهاد كالباشقات [٣]
ما الذي أوجب التخلف عنهم ... حيث صرتم كالأعظم النخرات
فتعالوا أيها الشباب فأنتم ... لي ؛ وإن أعل الدواء أساتي
واتركوا اليوم ما جبلتم عليه ... ودعوا الموبقات والشهوات
لتروا في الحياة كل جميل ... وتكونوا من سادة السادات

---

(١) حزق ملبسه : ضغطه وضيقه .
(٢) إشارة إلى أن قوم لوط : كانوا يأتون الذكران دون النساء .
(٣) الباشقات : جمع باشق . وهو من جوارح الطير .

من صفات المرأة

هذا وأكثر النساء يتصفن بكثرة الكلام، وقلة التفكير، وانسياب الدموع .

وقد يكون ذلك عادة فى سائر النساء :

إذا تكلمت أطالت، وربما لم تسكت أصلا .

وإذا فكرت : لم يقع اختيارها إلا على أفسد التفكير، وأقبح التدبير .

وإذا أقامت حجة — على باطل أتته ، أو ذنب ارتكبته — كانت حجتها الأولى والأخيرة : لا تقبل غيرها !

دموعها التى تنساب كالميازيب فى اليوم الممطر .

وهذا لا يمنع أن فيهن العفيفات، الطاهرات، القانتات، الصادقات، الصالحات .

هذا : ومهما بالغنا فى الإشادة بسمو الرجال وبطولاتهم : فإن من بين النساء من تسامى قدرها فوق أقدار الرجال .

وإن ننسى للمرأة فضلها وقدرها : فلن ننسى العابدة الزاهدة رابعة العدوية .

ولا ننسى السيدة أسماء بنت أبى بكر (ذات النطاقين) .

ولا ننسى العالمة العاملة (تقية) وقد كانت بليبيا . وكان علماء ليبيا إذا اختلفوا فى مسألة علمية أو فقهية ، وطال بهم الجدل . قالوا : تعالوا بنا إلى تقية : فإن عصابتها خير من عمائمنا .

وإن نسينا كل هؤلاء : فكيف ننسى أم عمارة الأنصارية (نسيبة) رضى الله تعالى عنها .

وقد كانت فى غزوة أحد : تضمد جراح المقاتلين . فما أن سمعت أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جرح : حتى قصدت نحوه ، فرأته وقد تكاثر عليه المشركون يريدون قتله ، فأخذت تقاتل دونه بالسيف ، وترمى بالنبال حتى صدتهم عن النيل منه .

وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما التفت يميناً أو شمالا يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دونى » .

وقد جرحت يومئذ إثنى عشر جرحاً .

فأى فخر نالته هذه المرأة المجاهدة ! لم ينله كثير من الرجال !

هدى الله تعالى نساءنا أن يقتدين بهن ، وألا ينصرفن إلى التبرج الممقوت ، وأن يلتزمن الاحتشام : ليكن مسلمات ، صالحات ، قانتات !

واجب القائمين على الأمر فينا

وإنا فى ختام حديثنا هذا : ندعو القائم بالأمر فينا — وقد اشتهر بالتقى ، والصلاح ، والإيمان — أن يجعل نصب عينيه مرضات الله تعالى وحده ، وأن يضرب بيد من حديد ، على كل من يحاول الخروج عن جادة الأخلاق ، وعن إطار الدين : الذى ارتضاه لنا رب العالمين !

ولن ننال الجنة إلا بالتمسك به ، والسير على هديه !

ولن ندخل النار إلا بالتفريط فى أوامره ، والسير فيما يأمر به الشيطان ، ويحض عليه ! والله الموفق والمستعان !

ويكفينى أن أختم حديثى بقول الكريم الحليم ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

وها نحن أولاء : لم نؤمن ، ولم نتق : فصب علينا الحكم العدل : مكان البركات : ناراً ودماراً !

وأتانا بأس ربنا ونحن نائمون ؛ كما أتانا ضحى ونحن لاعبون !

وإن كنت فى شك من هذا : فاذكر يوم صبحنا اليهود بقاذفاتهم ، ونحن نلهو ونلعب ! وعدتنا وعددنا ؛ يفوق عددهم وعدتهم !

وحين التفتنا إلى ربنا ، واستقام أمرنا ، وصار توكلنا عليه ، وأسلمنا أمرنا إليه : نصرنا ! ولا أمل فى النصر ؛ وحفظنا ؛ ولا أمل فى الحفظ ؛ وآوانا : ولا أمل فى الإيواء ؛ فله الحمد حتى يرضى ! وله الثناء الجميل ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله ! وسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم !

وحى من الوحى

قد صاغها الله بحسن صنعه « طاهرة »
فأصبحت بســوء فعلهـا « فاجرة »

بدت كشمس الضحى تختال معجبة   بنفسها . ومزيد الحسن يطغيها
والغـانيات لهـا حسن تدل به   لـكل ذى شغف : يبغى تقصيها
قد خصها الله بالآيات : من ترف   ومن دلال ، وحسن فى تعاليها

* * *

لها قوام كغصن البان ممتشقاً   وحسن وجه : تعالى الله منشيها
إذا ابتسمت : فالدر يبدو منضداً   تخاله بارقاً ينساب من فيها
وإن خطرت : تمشى كغزلان واحة   تروح وتغدو : لا تبالى بعاديها
وتمرح فى وجــد يذوب صبابة   ولم تخش من ذئب يجوب أراضيها[1]
وتترك هذا الحسن : نهباً لصائد   بغير شباك : بل تمد أياديها[2]

* * *

أتى أبو مرة[3] : يسعى ليفقدها   عفافها : وهى عطشى من سيسقيها
تقول : ها أنذا : من ذا له أرب   فى الحسن : يأتى ليشقى نفسه فيها

---

(١) (ولم تخش من ذئب يجوب أراضيها) أى هى كالغزال : فى الحسن ، والرشاقة ، والجمال ، ولـكنها ليست مثله فى النفور ، والبعد عمن يبتغى صيدها من ذئاب البشر !

(٢) (بل تمد أياديها) : أى هى تسعى للصائد بنفسها : بدلا من الهروب منه .

(٣) (أبو مرة) : كنية لإبليس اللعين ، أخزاه الله تعالى ، وأبعده عن التقاة من عباده .

فلم تصن عرضها عمن يدنسه ... من كل آثم : يدعو الحب تمويها[1]

* * *

ياسوءها من فتاة ضل مقصدها ... عن الحفاظ[2] الذى قد كان يحميها
وأصبحت سلعة : يرتادها سلفاً ... من شاء بالنزر من مال يوافيها

* * *

هذى الفتاة : التى قد صاغ جوهرها ... رب الهدى : لكن الشيطان يغويها
قد كان مرجعها للبيت : يسعدها ... زوج كريم لها فى الدار راعيها
ياويحها : عافها من كان يطلبها[3] ... وعابها كل من قد كان يشريها[4]
وقد أضر بها ما حل من عنس[5] ... ومن سقام[6] بدت قد عز شافيها
وأصبحت : لايرى إلا رذائلها ... أما محاسنها : فالإثم يخفيها

---

(١) (يدعو الحب تمويها) : أى يدعى حبه لها : لتقع فى حبائله ، وتسقط فى براثنه !
وهذا دائماً شأن الفتيان مع الفتيات : يوهمها بحبه لها ، والرغبة فى التزوج بها : حتى إذا ما انقادت له ، واطمأنت إلى وعوده : أفقدها أعز ما تحتفظ به ، ثم تركها حيرى ، حسرى !

(٢) (عن الحفاظ) : أى من المحافظة على عرضها ، وسمعتها ، وكرامتها !
ومن الحفاظ : ألا تبتذل فى تعاملها مع الرجاله — منظراً ومخبراً — فقد قال المولى الكريم العليم ، لنساء نبيه الرؤف الرحيم . وهن خير نساء العالمين « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً » والمعروف : عكس المنكر ، أى قولا : لا لين فيه .

(٣) (عافها من كان يطلبها) : أى تركها ، وانصرف عنها : من كان يتمنى نيلها والقرب منها : لو امتنعت عن الرذائل ، وتمسكت بالفضائل .

(٤) (وعابها كل من قد كان يشريها) أى أبى التزوج منها : من كان يبذل الجهد والمال : فى سبيل زواجها وحيازتها .

(٥) (وقد أضر بها ما حل من عنس) يقال : عنست الجارية : إذا طال مكثها فى بيت أهلها : حتى خرجت من عداد الأبكار ، ولم تتزوج قط : لانصراف الناس عنها ، وبغضهم لها .

(٦) (ومن سقام بدت : قد عز شافيها) وذلك لأن انصراف الأزواج عن الفتاة : يورث بها آلاما نفسية ، وسقاما لا تبرأ منها ، وهذا معلوم مشاهد .

وكم بكاء لها ، والقلب منفطر   وتذرف الدم دمعاً من مآقيها

* * *

أيحسن الله مسعانا ، ونكفره؟ [١]   فياخسارة : نفس فى تدنيها

وهل عفاف كتدنيس لأنفسنا ؟   يا ويلنا من ذنوب الروح تشقيها

* * *

يا رب لطفاً بنا فى كل نازلة   فأنت أرحم بالدنيا ، ومن فيها

قد قلت يارب : عفوا أستجيب لكم [٢]   وأنقذ النفس من شتى أعاديها

وأبذل الخير : مبسوطاً بساحتكم   وأغمر النفس : بالخيرات أوفيها

فما استمعنا ، وما تبنا لشقوتنا   يا ويلنا من نفوس : ضل باغيها

* * *

وإنما قد غدونا نبتغى مدداً   من اللعين : الذى قد بات يعميها [٣]

عن كل خير ، وعن فضل وعن عمل   بل فى ضلال ، وخسر : راح يطغيها

إبليس : لا شىء غير الشر يطلبه   لها ، ويطلب إعزازاً لشانيها

* * *

فلا تدعنا لإبليس : يعيث بنا   ويفسد النفس : طغياناً وتسفيها

---

(١) (أيحسن الله مسعانا ونكفره) أى أيحسن الله مسعانا : بما يسديه لنا من نصح ، وهداية لنا يصلحنا : فلا نستمع لنصحه ، ولا نلتفت لهدايته !

أليس هو القائل « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن » .

فأين منهن من استمع لهذه الآيات البينات ، وعمل بما فيها ؟

(٢) (قد قلت يا رب : عفواً أستجيب لكم) قال المولى الكريم الرحيم « للذين استجابوا لربهم الحسنى ... وإن يستعففن خير لهن » .

(٣) (من اللعين الذى قد بات يعميها) اللعين : إبليس ، الذى يعمى الإنسان عن الخير ، ويسوقه دائماً للشر .

ويذهب الخير عنا ، ثم يخذلنا[١] ويهزل الروح من أعلى مراقيها
فتبتئس بعد طول العز : واأسفا على النفوس : فمن ذا اليوم ينجيها ؟[٢]

* * *

فكم رأينا فتـــاة زانها أدب وعفة : لا ترى كبراً ولا تيها
تمشى فلست ترى إلا أناملها ولا ترى مضغة تنساب من فيها[٣]
تلوح كالبدر تمــلوه سحابته بحيث لا يبدون منها تثنيها[٤]
تسرى فما انزلقت يوماً ولا أسفت على ضياع ، ولم تشمت أعاديها
يحيبها فاضل : يبغى مودتها ودارها تزدهى حسناً بمن فيها
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا فالله حافظها : والله حاميها

ابن الخطيب

---

(١) (ويذهب الخير عنا ثم يخذلنا) قال تعالى « كمثل الشيطان إذ قال للانسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » .

(٢) (فمن ذا اليوم ينجيها ؟) ولا نجاة لها : إلا بالانصراف عن الرذائل ، والتمسك بأهداب الفضائل ، واتباع المولى جل شأنه فيما أمر به ، ونهى عنه .

(٣) (ولا ترى مضغة تنساب من فيها) كعادة بنات اليوم : لا تفارق (اللبانة) فمها ، وهى عادة قبيحة مذمومة : وبخاصة إذا كانت أمام الرجال .

(٤) (بحيث لا يبدون منها تثنيها) أى تستتر بالحجاب ، ولا تلتثنى فى مشيتها كالأفعى : شأن المتظاهرات بالاحتشام ، وهن شر من السافرات الآثمات .

خاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أكرم أهل الأرض والسموات : محمد بن عبد الله : الذى جاءنا بالحق المبين ، من رب العالمين .

وهدانا إلى دينه القويم ، وصراطه المستقيم .

فمن تبعه وسار على هديه : كان من السعداء الناجين .

ومن استكبر عن الهداية ، واتبع طريق الغواية : حق عليه العذاب الأليم ، وحرم من الثواب العظيم .

أما بعد : فقد يظن ظان ، أو يتوهم متوهم : أنى — بما كتبته فى هذا الكتاب — من أعداء المرأة .

فى حين أن المرأة : لا يعاديها إلا فاجر . ولست بفاجر .

وكيف أعادى جنس المرأة ومنه خرجت أمى التى تغمرنى بحنانها ، وزوجتى التى تغمرنى بمودتها ، وابنتى التى تفدينى بحياتها ؟ !

كيف أعادى من أمرنى خالقى ورازقى ببذل المودة والرحمة لها ؟

كيف أعادى من لولاها ما خلقنا ، وما نشأنا فى هذه الحياة ؟

كيف أعادى من ساوى مولاى — جل شأنه — بينى وبينها ، وجعل إكرامها قربة إليه ، وسبيلا لحبه ؟

كيف أعادى من أمرنا الرسول عليه الصلاة والسلام بحبها وبذل الخير لها « خيركم : خيركم لأهله » .

وإنما كل الذى أردته — بتأليف هذا الكتاب — أن أضع يد الرجل على عيوبه : ليقلع عنها ، وأضع يد المرأة على عيوبها : لتتخلص منها ، ويتقرب الصنفان إلى ربهما بحسن معاملة كل منهما الآخر .

وعلم الله أنى ما أردت إلا الخير لكليهما ، وما أردت إلا التقرب إلى الله تعالى بما قلته وشرحته .

والله أسأل أن يحسن نيتى وعملى : حتى ألقاه على خير حال إن شاء الله ؟

ابن الخطيب

فهرس كتاب المرأة

هـــذا الكتاب

المرأة : نصف المجتمع ، وزينته ، وسبب وجوده .

بيدها إسعاده ، وبيدها إشقاؤه . إذا صلحت : صلح الابناء والآباء والازواج ، وكونوا معاً سعادة الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

وإن فسدت المرأة : فياويل الابناء ، والآباء ، والازواج ، ويا نكد الدنيا وسوء طالعها !

والمرأة فى سائر العصور : منها الصالحة ، المؤمنة . ومنها الفاسدة ، الخادعة .

ولا يخلو عصر من العصور من وجودهما معاً .

وإنى لا أعدو الحق إذا أنا قلت : إن الأفضل منهما قليل « وقليل من عبادى الشكور » .

والمرأة والرجل : توأمان ، وصنوان : ما يجب على أحدهما : كان لزاماً على الآخر :

حب ، مودة ، عطف ، رحمة ، وبغير ذلك لا تستقيم الحياة ، ولا يعمر الكون .

فإذا لحق بأحدهما الاستعلاء ، مكان الاستحياء : وجب على كليهما قراءة هذا الكتاب ومدارسته فقد ألفته لصالحهما ، وما أردت به سوى نصحهما . ؟

ابن الخطيب

رقم الايداع ٣٨٤٤ / ٧٩